قصة حب مجوسية

عبد الرحمن منيف



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع: عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الخامسة
١٩٩٠

عبد الرحمن منيف

قصة حب مجوسية

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

العتبة

.. لا أطلب منكم الرحمة. ولا أريد عطفكم. اذا كنتم محسنين فامنحوا صدقاتكم للمتسولين. أنا لست متسولاً ولا مسكيناً، كما لا أعتبر نفسي لصاً أو قاطع طريق. ومع ذلك فان لي مشكلة. ومشكلتي.. دون كلمات كبيرة، ان الألم يعتصر قلبي.. ليس هذا جديداً بالنسبة للحياة التي أعيشها، لكن الأمر، في لحظات معينة. يبلغ حداً لا أستطيع احتماله. وما دام الأمر هكذا، فان الكلمات، في بعض الأحيان، وسيلة لإنقاذي. لست متأكداً. أتصور ذلك.. ويحتمل أن يكون الحديث.. خاصة معكم، ألماً جديداً، أتلقاه من عيونكم الميتة الساخرة.. لا يهم، قولوا أي شيء. ومع ذلك يجب أن أتكلم.

تقولون أحلام؟ مراهقة؟ حرمان؟ يمكن أن تقولوا أي شيء. ما أحسه، حباً حقيقياً. إذا تذكرت أرتعش، أحزن، تدوي في رأسي أفكار لا حصر لها. وبعض الأحيان تجتاحني رغبة للبكاء.

.. ذات مرة ، أخذت أروي القصة لصديق . قبل أن أنتهي أبتسم . كانت ابتسامته بين الإشفاق والسخرية . ولما قلت له بتأكيد أخرق «أني أحبها» أجابني بهدوء لزج مدمر . وهو يطبطب على يدي :

- إحرص على أن لا تتحدث عن ذلك ، مرة أخرى ، خاصة مع غيري .

صرخت وقد تملكني الغضب :

- ولكني أحبها .

وظلت نظراته الباردة تخترقني . شعرت بنفسي عارياً ذليلاً . دهشت أول الأمر ، فقد كنت أتصوره الانسان الذي أبحث عنه لأبوح له بهذا العذاب ، لكن ما كدت أرى هدوءه ، ثم ابتسامته الساخرة ، حتى شعرت بالانسحاق . صمت . عندما رآني طعيناً مهزوماً استدرك . أخذ يحاول الابتسام بطريقة مختلفة . لكن كان كل شيء قد انتهى .

وبطريقة حكيمة وباردة انزلقت من فمه كلمات جديدة :

- تمر على الإنسان حوادث كثيرة .. والعاقل من يتخلص من الأوهام بسرعة !

صرخت وقد عاودني الغضب مرة أخرى :

- ولكن ما أحس به ليس وهماً . إنه الحقيقة .. إنه أكثر واقعية من وجودنا .. نحن الاثنين .

وفجأة شعرت بنفسي أمتلئ تحدياً وأنا أضيف :

- تأكد أني سأراها .

وأصاب لهاثي عطب مفاجئ. خرج صوتي مسكيناً وأنا أقول:

– وقد نعيش الأيام الأخيرة من العمر معاً!

تنفست بصعوبة لما قلت هذه الكلمات. تطلعت إليه لأرى وقعها. اعتكر وجهه وكأنه رأى في عينيَّ بريقاً ملوناً من الخوف والشك ورغبة الانتحاب.

قال وابتسامة السخرية والشفقة تترافقان:

– اذا كنت تفكر بهذا فأنت لست حالماً فقط.. بل وتحب أن تعيش في الأوهام!

وبدأ يتكلم في موضوع آخر لكي لا أعاود ذكرها من جديد.

* * *

هل يمكن اعتبار ما حدث قصة؟ هل يمكن اعتباره قدراً ساخراً؟ لا أريد الضياع في غياهب الكلمات العمياء. فالمشاعر التي تسيطر عليَّ حين أتذكرها تجعلني أقرب إلى المجنون. والأوقات التي يمر فيها طيفها كثيرة لدرجة لا أستطيع أن أفكر بغيرها.

ومثلما قلت لكم.. لا أطلب الرحمة، فأنا أحتقر هذه العاطفة الذليلة. ولا أريد أن آخذ رأيكم.. فهذا الرأي، اذا انزلق من شفاهكم الرخوة. لن يكون. في أحسن الأحوال، أكثر رأفة بقلبي من رأي صديقي.

وما دام الأمر هكذا.. وما دام ظني بكم سيئاً لدرجة كبيرة، قد تسألون: لماذا إذن أقص عليكم هذا الذي حصل؟ وماذا أريد منكم؟

لكي أقطع عليكم الطريق. وأسد أفواهكم أقول:

أن الكنيسة الكاثوليكية، الرحيمة القلب. جعلت للانسان طريقاً للخلاص. عندما كلفت الآباء المقدسين بتلقي الاعتراف. كما أن علم النفس المعاصر. بالضوء الخافت في غرفة الطبيب. والمقعد الوثير الذي يستلقي عليه المريض، أوجد طريقاً لإذابة العذاب.. تمهيداً للشفاء، وأنتم.. هل أنتم آباء الكنيسة أو أطباء نفسيون تتلقون الاعتراف؟

مرة أخرى لا يهمني. أريد أن أقول ما حصل. سأقول ما حصل حتى لو نزلت السماء على الأرض. وأنتم، اذا شئتم اقرأوا.. واذا شئتم كفوا عن القراءة.. وحتى لو قرأتم فلن تضيفوا أية صفة جديدة للصفات الكثيرة التي أعرفها عن نفسي!

الجبل

حدث ذلك في الصيف.. أواخر الصيف.

بعد ريح هوجاء تلبدت السماء بسرعة، وهطلت أمطار غزيرة. كنت في ذلك الوقت على ضفاف البحيرة. كنت أفكر، بغموض، بذلك الهم الصغير الذي بدأ يغزو قلبي.

بعد الزخات الأولى شعرت بالنشوة، لكن لما رأيت المطر يشتد ركضت لأصل إلى شرفة الفندق. تبللت وأنا أركض، وما كدت أقف تحت الشرفة، وأخرج منديلاً لأمسح رقبتي ورأسي، حتى شعرت فجأة بلذة المطر من جديد. كانت برودته الناعمة اللذيذة تنزلق من رأسي مباشرة لتدغدغ كل خلية في جسدي.. ثم تستقر في العظام. تركت قطرات المطر والبرودة تتسرب. كنت بحاجة إلى ذلك. لكن في لحظة ما (كانت لحظة غامضة وغريبة) أحسست أن عيوناً من وراء الزجاج تراني، وان منظري يثير السخرية. التفت لأرى، لأعتذر (ويخيل إلي ان صورتها كانت تطفو في ذاكرتي) واذا بعيوننا تلتقي.

المرة الثانية تلتقي عيوننا خلال نفس اليوم.

كانت المرة الأولى قبل الظهر. كان الجو حاراً ثقيلاً. نزلاء الفندق على شاطئ البحيرة. نساء أقرب إلى العري، رجال بكروش صغيرة مرتاحة وظهور محروقة.. أما الأطفال فكانوا يبنون بيوتاً ثم يهدمونها.. دون تعب.

كنت في ذلك الوقت أمتلئ ضجراً. الكتاب بين يدي أصبح عدواً، بعد أن تحولت حروفه إلى غيوم سوداء بلا معنى. لم أستطع القراءة، ولم استطع أن أفعل شيئاً، خاصة بعد أن شعرت ببرودة مياه البحيرة، والتي لم أقو على احتمالها أكثر من بضع دقائق. كان الناس حولي عوالم مغلقة.. أو هكذا كانت الصورة، وأنا أمر على الأجساد والوجوه.

في لحظة، لا أعرف أية لحظة، التقت عيوننا. كانت قريبة ومضطجعة على بطنها أول الأمر. كانت تعبث بعصا صغيرة على الرمل، لكن ما كادت نظراتي تزحف على ظهرها، حتى ارتعشت. انقلبت بسرعة ونظرت نحوي مباشرة... وفي تلك اللحظة التقت نظراتنا.

يجب أن تصدقوا أن في الانسان شيئاً غامضاً ومحيراً، اذ ما كدت أراها حتى ظننت اني أعرفها منذ آلاف السنين. ليس ظناً ما أقوله لكم.. إنه الحقيقة. الحقيقة المطلقة والوحيدة.

عينان تترجرجان بالحزن. شفاه رقيقة والسفلى مرتخية باثارة موجعة. أما الوجه فقد لوحته الشمس، فبدا غامضاً ومجبولاً باللذة والفجيعة وملعوناً. عند الوجه توقفت. لم أر جسدها العاري. ولا أدري لماذا استولت عليَّ مشاعر قاسية أقنعتني أني لا أملك حق النظر إلى جسدها. وفي لحظة أخرى استبد بي شعور أقوى بأن نظرتي لو امتدت إلى ذلك الجسد يمكن أن

تلوثه. أتذكر أنها كانت تلبس مايوها أصفر. ولا أتذكر شيئاً أكثر من ذلك.

دامت النظرة دهرا. كانت نظرتها حنونة وعابثة. نظرة طفلة شقية ونظرة أم. رأيت في عينيها عالماً من الخصب والرعونة، عالما لا نهاية له. فرحت. كدت أقفز من الفرح. لم أعد أرى غيرها. وددت أن أصرخ. أن أرقص. أية أفكار أخرى عبرت رأسي؟ ثقوا.. حتى هذا الوقت المتأخر لا أعرف! شعرت بالجنون. شعرت برغبة الحياة تتدفق في جسدي. تأكدت في تلك اللحظة ان الضجر أكذوبة اختلقها الوجوديون والناس المترفون. قلت في نفسي: «لا يمكن أن أتنازل عن هذا الفرح» كان الفرح يزلزلني. يتفجر في داخلي كطوفان. هل طالت النظرة؟ هل رآها غيرنا؟ ثقوا اني لا أعرف.

عندما وقف نظر حواليه. كانت نظرته عجولة ولا تحمل تساؤلاً من أي نوع. نفض عن بطنه حبات الرمل بسأم، وسحب كرسياً صغيراً من القماش كان يرتكي عليه.. ولما طال وقوفه قال لها بطريقة ميتة:

– ألا تفكرين بالنهوض؟

أمالت برأسها موافقة. ثم هزته بتسليم، ووقفت. لم يتكلما. سارا ببطء، لكن في لحظة (لا أدري لم حصل ذلك) التفتت. كانت تنظر إليَّ تماماً. أغرقتني نظرتها. شعرت بقلبي ينقبض لما رأيتها تسير مبتعدة.

لما اختفيا في الزحام تلفتُّ حولي.. ومن جديد رأيت الناس. كان الناس مثل علب معدنية محكمة الاغلاق: عيون مغمضة. ذقون مرتخية وملامسة للصدور.. ثم شفاه متهدلة.. وصمت.

لما أصبحا بعيدين، مثل أشباح، وهما يتسلقان السفح باتجاه الفندق، أحسست بالوحدة والألم.

في صالة الطعام جلست قريباً (الصدفة العمياء هي التي دفعتني إلى تلك الزاوية) ظننت ان لزوجها عيوناً من الخلف تتابعني في هذه الرحلة الخطرة. تملكني الخوف والاضطراب. كانت تجلس مقابلي تماماً، أما هو فقد جلس إلى جانبها، وظهره نحوي.. وجلس الولدان الصغيران في ناحيتين متقابلتين.

وطوال فترة الغداء لم أجرؤ على أن أنظر إليها.

وها هي النظرة الثانية. وأنا أقف تحت الشرفة، مبلولاً مثل كلب. مجنوناً بنظرة البحيرة التي خضَّت دمائي، وجعلتني أفكر كثيراً.. ولم أفطن للمطر!

تجرأت.. وأنا أقف في الشرفة، ان أنظر إليها. كانت شجرة من أشجار الصالون تشكل حاجزاً بيني وبين زوجها. أما تجاهها فكان المدى رحباً منتعشاً، مما ساعدني على أن أنهش من هذه اللذة دون توقف (الطبيعة كنز يفجر في الانسان قوى غير منظورة) كنت أريد أن أكتشفها، وتراءت لي أفكار كثيرة لا أجرؤ على أن أقولها.

قلت لكم إن في الانسان شيئاً غامضاً، لا سبيل إلى فهمه. وهذا ما حصل بالضبط.

بشكل ما تأكدت ان لها عالماً خاصاً. وان عالمها ليس بعيداً عن عالم زوجها فحسب، بل ومختلف عنه تماماً. كان يبدو مرتاح الوجه، ومليئاً بالصحة والرضا. وكانت تبدو قلقة، متعبة، وفيها مقدار من الحزن يجعلك

تقتنع به وتحبه. كانت ملامحها رقيقة، ناعمة. وجسدها أقرب إلى الصغر. لم تكن قصيرة، لكن هناك نوعاً من النساء تشغر بانوثته تفيض إلى الخارج بقوة.. من جسد أقرب إلى النحول والشفافية.

عبر الزجاج، المعتم قليلاً، تكلمت عيناها. تكلمتا بنداء صغير أقرب إلى همسة نائحة. وفجأة استولى علي الرعب. كانت الكلمات والأفكار تتقاطع في رأسي مثل البروق: من أنت؟ أية رحلة خطرة تدفعنا اليها الرياح؟ البياض الساكن في عينيك يفتش عن مرفأ.. وأنا المتعب الملقى في هذا الركن البعيد عن العالم.. هل أكون هذا المرفأ؟ أريد يدا صغيرة ودافئة تسندني. أحس شيئاً في داخلي يتدمر بسرعة ويفنى.

صرخت دون صوت وأنا أنتفض مثل ديك مبلول: الزجاج بيننا يحصد خفقة القلب ثم يعجنها كتلة نار ويدحرجها.. ثم يأتي المطر ليذيب لذة الحلم.

هززت رأسي قليلاً.. تساقطت قطرات عجولة من المطر. شعرت بلذة. امتلأ قلبي بالحزن. قلت لها بعيني: اغفري لي. اتركيني. أنت مقدسة لدرجة لا يمكن أن أقترب منك. هزت يد ولد مشاكس الشجرة. اضطربت لما رأيت وجه زوجها. التفت للحظة صغيرة. قلت في نفسي: لو رآني أتطلع اليها هكذا لاقتلع عيني. لوضع فأراً في ظهري، تحت الثياب، ودفعني بقوة لأسير، لأركض، في أودية الخنازير. قلت للنبتة الخضراء التي عادت لتستقر: ايتها الشجرة المباركة في كل الأوقات، ارتفعي سداً بيني وبين الذين يريدون قتلي. كانت النبتة الخضراء تنفرد مثل مراوح صغيرة بمساحة راحة اليد. وفي لحظات تبدو عملاقة كجبال عالية.. وفي لحظات أخرى سوداء قاتمة كغابة السنديان.. لكن في كل اللحظات، ومن الفجوات الضيقة كانت تشع قطرات مضيئة.. كانت عيناها تشعان.

لم يعد ما ينزل من الغيوم الثقيلة المطر. كان الفرح الملون. شعرت بالأصوات المتداخلة حولي وكأنها الأناشيد تأتي من مكان بعيد. وفي لحظات أخرى شعرت بالكون وكأنه يد أم.

وظللت أترك عينيَّ تسافران.. لكن ما تكاد تعودان لتستقرا في عينيها حتى أحس اني أولد من جديد. كانت نظراتها تعبر إلي مخترقة الحزن والزجاج. كانت نظراتها عالماً طفلاً يركض برعونة نحو الفرح والحزن معاً.

قلت لنفسي بتحدٍ أخرق: سأقتل الكراهية والحقد. سأقتل الخيبة والكتب. أما التأملات البلهاء التي تسرقني من كل ما حولي فسوف أدفنها في أقرب مزبلة. وفي لحظة أخرى قلت بتصميم: أنا أحترق الآن.. احترق بلهفة شيء لم أكن أحس بمثله من قبل. ومرت تساؤلات عربيدة في رأسي: أين كنت أعيش؟ كيف يمكن للانسان ان يعيش دون أن يحس؟ هل يمكن لامرأة أن تولِّد في القلب هذا المقدار كله من الفرح والاغنيات المجوسية؟

كانت الدماء والأفكار تنفجر في رأسي بسرعة مذهلة، ولم أعد قادراً على الوقوف تجاه أية كلمة أو أية فكرة. قلت لنفسي بتسليم: كنت فيما مضى أقرأ ما يقولونه عن هذا الشيء الذي يسمونه اللهفة.. فأضحك. كنت أتساءل هل يمكن للانسان أن يتحول إلى بندول لا يتوقف ولا يهدأ؟ ان يتحرك دون معنى؟ ان يتلهف لامرأة؟ ان ينتظرها؟ أجبت نفسي:

انني أقع الآن في ذلك الشيء الغامض.

آه.. يمكن أن تضحكوا. اضحكوا مثل بغال تفتح أفواهها حتى النهاية. لقد سقطت!

شعرت بقلبي يتموَّج في صدري مثل زورق. قلت : بداية الحماقة. سحبت عينيَّ من جديد واطلقتهما في الغيوم والأشجار البعيدة. لكن وجدت نفسي أضطرب، ثم بعد لحظة سمعت شيئاً في داخلي يتمزق وينوح.

تحركت قليلاً وقد شعرت بضرورة فعل شيء، أي شيء، لكن شعوراً آخر انتابني في نفس اللحظة : فجأة اصابتني برودة قاتلة. أحسست اني مدفون في أعماق كثبان جليدية، واني مسمر وراء الزجاج ولا أستطيع الحركة. وباستسلام أبله أردت أن أكذب. أن أخطئ. لكن عينيها وهما ترتميان علي كانتا تجرحانني. تجعلانني أكثر إحساساً بوقع خطاها وهي تسير في دمي. كنت أسحب عيني. أرميهما بعيداً، لكن دون أن أدري أكتشف نفسي وقد بدأت أتسلل في الفجوات الصغيرة، بين أوراق النبتة الخضراء، وارتمي هناك. وانظر.. وأنظر إلى عينيها. آه.. ما أشد رعب العيون التي أراها. ما أشد فتنتها. كانت تقول لي بهمس : أيها الغريب الذي لا مأوى له.. مأواك في عينيَّ. في هاتين العينين سأجعل لك أرجوحة.. وفي هذه الأرجوحة تقضي ما تبقّى لك من العمر.. ولن تندم.

.. الآن.. بعد السنين الطويلة أريد أن أبكي. لماذا لم أهرب؟ لماذا تصورت اني لم أرها، واني رأيتها آلاف المرات؟ كنت أحلم بها طوال عمري. وكنت أراها مستحيلة. وفي لحظة مليئة بالعذوبة، بدا لي كل شيء قريباً، ناعماً، جارحاً.. وقررت البقاء.

في وقت ما انقطع المطر. هل مضى وقت طويل؟ قصير؟ لا أدري. لما جرجرت نظراتي إلى البعيد كانت الجبال الخضراء ما تزال تعصر دموعها، وتحولها إلى جداول صغيرة تتفلّت بعناد صبياني نحو السفوح. وكانت

الأوراق الخضراء بعد أن فردت نفسها مثل أجنحة طيور قوية، قد تراخت وتهدلت بعد المطر. والحصى.. كان الحصى يلمع كقطع الزجاج الملون. وأرتبدّ. الزجاج ما زال بيننا شاهقاً قاسياً أبدياً. وعيناها حمامتان اغتسلتا بالأسي، لكنهما تركضان وراء فرحٍ ما.

قلت لنفسي بحقد ودون صوت: يا حزن الأيام المشؤومة، سوف أصرعك كذبابة، ولن أحزن بعد اليوم. أما الحيوان الصغير، والمعصوب العينين، والذي يسمونه الجبن، فسوف أقتله.

الحيوان الصغير يفرك في دمي، داخل العروق. كنت أندم على كل فعل. كنت أندم على كل فعل لم أفعله. أتحول فجأة إلى طير. أطير بعيداً بعيداً. أطير وأرجع. والزجاج بمقدار ما كان يقيني من الجنون، كان ينغل في صدري بجنون آخر. قلت لنفسي بسخرية: مرة واحدة نولد.. ومرة واحدة نموت. وأنا.. أولد الآن.. أولد في عينيها.

وتظل عيناها تضحكان. أحس الضحكات الصغيرة تفترش دمي، توقده بالعذاب. تطفئه. ودون تعب أتساءل: ما هذا؟ هل يمكن أن تكون اللهفة؟ وهل قرأت ذلك في كتاب؟

ولا أصدق شيئاً. تظل العينان تخترقني. وأصعد وأهبط، ثم أنفجر وأتلاشى.

•

لما توقف المطر وامتلأ الجو بتلك الرائحة التي لا تعبر عنها أية كلمة في الكون، انتفضت، ثم وجدت نفسي أمشي دون إرادة. درت حول الفندق. توقفت عند شجرة الصنوبر الكبيرة. كانت القطرات الأخيرة المتجمعة على أوراقها الإبرية تنسكب بنعومة حادة. رفعت وجهي لأتلقى حبات المطر... وكدت أبكي.

في وقت ما سمعت لغطاً ينمو حولي بسرعة. انتبهت فجأة.. وقررت بغموض شيئاً.

انزلقت إلى صالة الفندق الواسعة، ودون تردد اندفعت إلى الركن البعيد وجلست. كانت ثلاث أو أربع موائد بيننا. اثنان يجلسان على المائدة المحاذية لها. كان أحدهما يحجب قسماً كبيراً من جسدها.. أما رأسها، اذا رفعته إلى أعلى قليلاً، فكان يظهر كجبل الثلج: ساطعاً متورداً.

هل كانت تتابعني لما دخلت؟ لماذا غيرت جلستها وأصبحت بمواجهتي الآن؟ اجتاحني دبيب أصم، وبعد ذلك شعرت بالرغبة في أن ألمس شيئاً مرت عليه يداها... وفي النهاية سيطرت علي حالة من التلاشي والحزن.

اختلطت أصوات موسيقى قديمة بالدخان، بأقداح فارغة ومتروكة. لم أعد قادراً أن أفعل شيئاً... أما كأس الكونياك الذي وضعه الجرسون أمامي، فكان نتيجة بلاهة ورغبة آلية ان لا أظل هكذا.

كنت أتألم. لا.. ان شيئاً آخر يموج في صدري.. ربما رغبة البكاء. اضحكوا لا يهمني.

كان زوجها يجلس إلى جانبها.. أما الصغيران فكانا يلعبان حولها.. كان الزوج صامتاً، ينظر حواليه بتثاقل وسأم. قلت في نفسي: لماذا يرتمي هكذا؟ ألا يقول لها كلمة؟ ألا يتمطى؟ وبحقد مجنون أضفت: أيها الرجل الذي لا يقوى على السعادة: اشتمها.. امسك يدها.. تطلع في عينيها.. أما أن تبقى مصلوباً كالجثة.. فهذا لا يغتفره أحد.

لا أعرف لماذا لم أحتمل. وجدت نفسي أغادر القاعة بعصبية. عند الباب الدوّار اصطدمت برجل. امتلأت خجلاً. تصورت البلاهة التي

تنزف من وجهي أكثر من أن يحتملها أحد، وتصورت عيونها خيوطاً حريرية تشدني. هربت من نظراتها. لما رفعت وجهي لأعتذر، كانت تضحك تلك الضحكة الصغيرة التي تشبه المغفرة.

اضحكوا... تقولون مراهقة؟.. ربما.

كنت في الثلاثين. كنت في المائة. كنت كبيراً، وكنت صغيراً.. وكانت لي علاقات.

منذ ثلاث سنين أنا وميرا لا نفترق. تخاصمنا كثيراً، لكن رضينا بعدد المرات التي تخاصمنا. غفرت لميرا الكثير، لكنها غفرت لي أكثر. وميرا التي أحدثكم عنها شقراء، طويلة، لها عينان بلون الكستناء. أما جسمها فكان ساحراً لدرجة ان أي انسان رآها تسير معي حسدني... وربما شتمها في سره، لكن ميرا لم تعبأ بشيء. كانت عالما غريباً، وكنت أحبها لغرابتها. كانت تحب الرياضة والشعر، ولم تكن تتحدث إلا عن ذلك. وقد لامتني مرات كثيرة لأني أهمل نفسي هكذا، وتنبأت اني سأموت قبل الأربعين، ولما مرضت ذات مرة، خشيت علي كثيراً وظلت تبكي فوق رأسي، حتى داخلني الشك ان موتي أصبح وشيكاً، لكن لما شفيت وتبين ان ما كنت أشكو منه مجرد عارض يصيب معظم الناس، لم تسلم، وظلت تلومني، ولا تتوقف عن توجيه الكلمات القاسية، مشيرة إلى الصفرة في عيني والى بروز عضلات الرقبة وأكدت اني «مصاب بالغدد والطبيب لا يدرك ذلك» أما عندما قررت السفر إلى الجبل للراحة، فلم أر في عينيها ضجراً أو احتجاجاً، ولا أخطئ اذا قلت انها فرحت لهذا القرار الذي «سيكون له تأثير مفيد على صحتي، خاصة اذا مارست الرياضة.. أية رياضة، وكنت بعيداً عن جو المدينة الخانق، والذي يسبب السرطان بكل تأكيد».

لم تكتف ميرا بذلك، حضَّرت لي أنواعاً من الأغذية «المفيدة والضرورية». وفي طريقنا إلى محطة القطار أصرَّت أن تشتري لي بطيخة خضراء كبيرة، وقالت: وهي تشير اليها: قلبي كبير هكذا.. وقد تعبت كثيراً بنقل هذه البطيخة من قطار لآخر، ثم بنقلها إلى الباص.. ولا تستغربوا اذا قلت لكم ان البطيخة اللعينة انزلقت من بين يدي وانفلقت عند باب الفندق تماماً وسببت لي احراجاً، ورأيت ضحكاً مكتوماً في عيون الذين كانوا حولي.

كنت خارجاً لتوي من المرض. وفكرة السفر إلى الجبل عنت لي هكذا.. أما ميرا فقد أصرت ان «النقاهة ضرورية.. انها جزء من العلاج» واستغربت كثيراً ان الطبيب لم يشر علي بذلك.

لم أكن أعرف ميرا وحدها. كنت في نفس الوقت على علاقة مع باولا. وباولا امرأة من نوع آخر: بسيطة، صريحة، تكره الموسيقى الحزينة وتكره الفلسفة (باولا تدرس الفلسفة). تدخن بشراهة، ويظهر ذلك بوضوح من أعقاب السجائر الملوثة بالروج في جميع أنحاء الغرفة والحمام. وكانت باولا تهوى الشرب لدرجة السكر ثم البكاء.. وكنا دائما نقضي وقتا شديد الروعة والجمال والحزن.

وقبل ميرا وقبل باولا، باولا ذات الصدر الكبير والاثداء الصلبة، والتي لا يمكن أن أنسي رائحتها اللذيذة. قبل هاتين المرأتين.. وبعدهما، عرفت نساء. لكن في ذلك الصيف الملعون تحولت إلى انسان آخر. ولو ان احداً رآني أقف تحت الشرفة وأرقب، من وراء الزجاج، العالم السحري الذي تدفق علي فجأة.. لو ان احداً رآني، وقد تهدلت عضلاتي وتحولت إلى بندول، لقال ان جنوناً من نوع ما يسيطر علي.

مراهق؟ نعم. أتحداكم ان تقولوا اني لم أكن كذلك. واذا أردتم أن تقولوا شيئاً آخر عن الحرمان فسوف تخطئون كثيراً. لم أكن أتنقل بين النساء كفراشة، لكن لم أكن محروماً. كنت أمسك الفخذ، بثقله الزاهي، بين يدي وأهزه لتمتلىء روحي بنشوة الامتلاك والظفر. وكانت يداي تتسللان، مثل أفعى، إلى الصدر، وهناك أترك اليدين تحومان فوق النهدين، ووراء الظهر، أتركهما تهبطان إلى الأرداف وأصرخ في داخلي بصوت يشبه فحيح الحية: اشبع.. يجب أن تشبع حتى التخمة.

ولكن اذا وجد بينكم حكيم أعور، له لحية تشبه خيوط العنكبوت، فسوف يقول: ان حالة مثل هذه تعود بأصولها إلى أيام الطفولة.. انه الحرمان، الحرمان من عطف الأم. نعم ماتت أمي لما كنت صغيراً.. لكن هذا الحكيم الذي يفتح فمه كضفدعة ليغرق الناس بكلمات كبيرةٌ وغامضة يفتقر إلى شيء أساسي يكون جوهر الانسان والعلاقة الجنسية.. يفتقر إلى الحب.

الحنان.. ان أفقد أمي ولم يتجاوز عمري السادسة. ان أهيم في الدنيا لا أعرف لماذا وإلى متى.. وأعيش على كل شيء ماض، حتى لو كان مجرد زمن أعمى.. وفي حالات معينة مجرد أحلام..

يمكن لأي تحليل أن يسرف في دراسة حالتي، بحيث ينتهي إلى أشياء كثيرة. لكن الأمر الأكيد ان ما وجدت نفسي فيه لا يجد مأوى في الكلمات القاتمة والبلهاء التي تموج في رؤوسكم الآن.

كنت وأنا أخرج من قاعة الفندق قد قررت أن أذهب لرادميلا «وأنت يا رادميلا لماذا كنت في تلك اللحظة تعطين شفتيك لايفان؟ لماذا؟

قولي بحق السماء، قولي كلمة لاستريح». لو ان شيئاً آخر حصل لكنت الآن بنظركم انسانا سويا.. لكن اسمعوا ما حدث:

في الليلة السابقة تخاصمنا، دون كلمات ودون أن نستعمل الأيدي أو الأدوات الجارحة. تخاصمت وايفان عدداً من المرات يوازي عدد الرقصات. كنا أربعة رجال وثلاث نساء، نجلس في وسط قاعة الرقص، وكان على واحد منا أن يتحمل، أن يدفع ثمناً ما. ولا أعرف لماذا اختارتني رادميلا مرات كثيرة لمراقصتها. قبل انتهاء الرقص اتفقنا. وعندما سمعنا فالس فينا كنا نلهث في الفراش. أما في الصباح التالي فقد كنت حزيناً لدرجة منفّرة. وعند الظهر كنت أفكر بالناموس الطبيعي وأصل الحياة.. أما الكلمات التي أجبت بها رادميلا فأعترف انها كانت بائسة ومهينة.. وغادرتني رادميلا بعصبية بعد الغداء.. وقررت أن تنتقم مني بسرعة.

كنت أعرف رادميلا منذ وقت طويل. وقد بانت الشهوة في عيني منذ ان التقينا في قاعة الفندق. هزت رأسها كفرس وقالت: «ابتعد من طريقي.. ولا أريد متاعب من أي نوع» لكن الضحكة التي انفجرت وراء هذه الكلمات، كانت مسعورة لدرجة لم أحتملها.. أمسكت يدها عند الزند، وضغطت. تركتني أفعل ذلك لأتمتع ولأختبر اللحم المشبع الهني. ثم قرصت يدي بدلال وقالت: «ما زال لدينا وقت طويل... هنا وفي المدينة».

لما تركتني رادميلا شعرت بالراحة..

وفي اليوم التالي.. لما ارتميت على الرمل الناعم، على ضفاف البحيرة، أصابتني حالة من اللاجدوى والحزن. أما الرغبات التي كانت تنتابني وأنا أنظر إلى أعماق البحيرة فكانت غامضة ومتداخلة.

وفي تلك الحالة من اللاجدوى والغموض والتبدد واجهت تلك النظرة.. وبدأت حياتي تتفتّت ثم تتدمّر.. وأصبحت ملعوناً.

لو ان رادميلا، في ذلك الغروب، بعد المطر، أعطتني نفسها لأنقذتني. لكن رادميلا لم تنتظر. هربت بسرعة. وشفاه ايفان وهي تطبق على عنقها تحت شجرة الصنوبر، قرب الباب الخلفي للمطعم، جعلتني أركض نحو البحيرة.

كانت البحيرة بعد المطر معتكرة، وكانت السيول الصغيرة المتأخرة لا تزال تتدفق اليها بكسل. أما الزورق الذي أمسكته، كتعزية رخيصة، فقد انزلق من بين يدي، وكأنه يهرب. وعندما جلست على أحد الحجارة، قرب القنطرة، ناحية الشمال، شعرت من جديد بالحزن يغطيني كانه الثياب الثقيلة، والتمعت في ذاكرتي عيناها. كانت عيناها مثل فوهات الجحيم المتورد.. لا يمكن أن تنسى. قلت لنفسي بصوت لا أكاد أسمعه: «أيها الرب الذي يرتكز على يد واحدة.. وينظر إلى البشر التعساء، لماذا تركت كل شيء يسير في الدرب الخطرة؟» وتصورت الرب نائماً.. وفي لحظة أخرى تصورته ضجراً، وأردته أن يتكلم، لكنه لم يفعل.

وانتم... أية كلمات تندلق الآن من الذاكرة إلى الشفاه المرتخية.. وتريدون أن تقذفوها في وجهي؟

نحن نزلاء الفندق سجناء صالة الرقص والمطعم في أغلب الليالي. فاذا خرج القمر من مغارته المتربة، وتدحرج ككرة خضراء في المدى الرحب الذي يسمونه السماء... اذا حصل ذلك، وكان الدفء ينتشر في ذرات الهواء وينعشها، يصيب عروق الرجال والنساء سعار أصفر بلون الصديد.. وكان أغلب النزلاء يخرجون إلى الطرقات الضيقة في الحديقة الكبيرة

للفندق ، والتي تصل حتى أطراف الوادي .. وهناك كانوا يشبكون أيديهم بقسوة ، ويقبلون بعضهم بشهوة الكلاب .. حتى اذا تحركت الدماء ، قذفوا في سراويلهم أو ركضوا مثل قطط مذعورة إلى الفراش.

سجناء الفندق كثيرون .. في الصالات ، تحت الأشجار .. وفي الليل يتوارون في ضوء القمر في الزوايا أو في الغرف المزهوة بصور بحيرات ملوثة الألوان وحولها رجال ونساء يضحكون .. ولا يعرفون معنى الألم.

لو لم يسقط المطر في اليوم التالي لدمرت ذلك الحيوان الصغير الذي رفع رأسه فجأة. لكنت حصلت على رادميلا مرة أخرى .. نعم ان أحصل عليها مرة أخرى وبطريقة ما .. ان أنتزعها من ايفان. وفي أحضانها يمكن أن أنسى هذا الشهيق المتسرب إلى دمائي. يمكن أن أغمض عينيَّ فلا أرى تلك العينين المخضبتين بالنداء واللهفة والحزن ... وهذا الشيء الغامض الذي لا أعرف اسمه .. والذي ربما كان الحب. في أحضان رادميلا ... مثل أول مرة ، يمكن أن أنسى. وقبل أن أستيقظ حزيناً ونادماً ، ينتهي الأمر ، تنطفئ العيون وتتلاشى من رأسي. لكن شهوة النسيان التي تمنيّتها أصبحت مثل ذاكرة الله : واسعة ، هاربة ودائماً يغادرها الألم.

الآن .. نعم الآن. وبعد مرور السنين ، اذا سقط المطر يتملكني حنين لا يوصف لأن أبكي. أحس بالدنيا صغيرة ، محاصرة. وتوشك أن تنتهي.

وهناك لم يكن مطر الصيف فقط .. كان مطراً كثيفاً متواصلاً ينبش من الذاكرة الأحزان والذكريات. وأنتم تعرفون ان الأحزان الملعونة لا تريد جوقة من المهرجين لكي تنتزع نفسها من أكفانها .. انها تنتظر .. وفي لحظة تقف شامخة مزدرية ، كأنها كانت تترصد لتنفجر.

مطر الصيف اللعين جمع السجناء مرة أخرى. جمعهم أول الأمر في صالة الطعام، ثم في المقهى. وفي المقهى ضج الصغار.. وقفوا وجباههم على الزجاج يتطلعون بحقد إلى المطر، وقفوا عند الأبواب بانتظار لحظة الهروب إلى مكان ما. أما الرجال فقد استخرجوا من محافظ جلدية (سوداء أغلب الأحيان) جرائد مضت عليها أيام.. وبدأوا ينظرون إلى الحروف بملل.. وبين فترة وأخرى ينظرون إلى المطر، وعندما يتعبون يلعبون الورق. وقبل أن ينتصف النهار تدور كؤوس البيرة بسرعة أكبر.. أما النساء فقد تشاغلن بأمور كثيرة: ملاحقة الأطفال، الذهاب إلى الغرف وتبديل الثياب... ثم الجلوس بصمت والمراقبة النشيطة لكل شيء!

.. ومعبودتي..

كانت هناك: بنطال أسود ضيق وكنزة رمادية.. ولا أدري لماذا وضعت شالاً على كتفيها!

ألقت معبودتي مجلة مصورة على الطاولة. وجابت نظراتها الصالة.. تفتش. هل كانت تفتش عني؟ أتوهم؟ أحلم؟ أي شيء آخر يمكن أن تقولوا؟

كان المطريتساقط غزيراً مشعاً. وبين يديَّ كتاب لا أستطيع أن أطويه، ولا أستطيع أن اقرأ فيه سطراً واحداً. رادميلا؟ كانت رادميلا هناك، تجلس متكورة إلى جانب ايفان، وقد تقاربا لدرجة الالتصاق. كانا يتهامسان كعاشقين. لم ينظرا نحوي.. وحتى التحية التي ألقيتها عليهما أثناء الافطار سببت لهما ازعاجاً، لايفان بشكل خاص.

فكرت ان ألعب الشطرنج لأغتال الضجر.. لكن رقع اللعب الثلاث كانت محجوزة.. وكان الفتى الواسع الفم يصرع الرجال، وهو يدور حولهم

كقط. أما عندما جلست قريباً أرقب اللاعبين، فقد استولى عليَّ الخوف. جلست مستسلماً، وهزمت بعدد المرات التي امتلأت القاعة بضحكة ذلك الفتى الواسع الفم. والذي يدور كقط، عندما ينتهي من أولئك المسنين الواثقين.

وفجأة وأنا أستدير، بعد لعبة ماكرة، حاول الفتى الواسع الفم في نهايتها أن يتظاهر بالهزيمة، لكنه، في النقلة الأخيرة، انتصر، وجلجلت ضحكته الواثقة.. وأنا أستدير لأغيِّر جلستي، رأيتها. كانت قريبة. قريبة لدرجة مذهلة. شعرت اني أختنق. صرخت في أعماقي وأنا أتلوى من الألم: «يا أم الأرض الخصبة. يا لهباً يشعل الحجر... اذهبي، لا أحتمل ان اراك قريبة هكذا. لا أستحق». وبخوف حزين سحبت نفسي من الرعب. تنفست بجموح، وقررت أن أتطلع إلى عينيها. شعرت بعناق مجنون يزدحم في دمي، يدفعه ويوقفه. ثم بعد لحظة شعرت بذلك الدفء الناعم يغطيني. أغمضت عيني. شممت رائحتها تملأني. كانت كخيمة خضراء فوقي، ولما بدأت أتذكر متى جاءت، أحسست ان المدى حولي، في لحظة معينة، بدأ يزداد اتساعاً وبياضاً، حتى أنه غطى الأرض كلها، ثم أحسست بشيء أقرب إلى الدفء يتساقط ليصبح حاداً ومسيطراً كالألم.. وتأكدت انها جاءت في تلك اللحظة.

لما حركت كرسي قليلاً لأعتذر، لأفسح لها، مست قدمها قدمي. سحبت قدمي. نظرت إلي وعبرت وجهها ابتسامة صغيرة شاحبة.. ثم استدارت بعبقرية ومشت.

الآن أراها، أراها قريبة كجفن العين. كانت هالة من الضياء، من الفرح. ما أشد بؤس الكلمات. ليتني أصاب بالخرس الكلي وأختنق، وليت

ان رادميلا ظلت وفية لي بضعة أيام أخرى. لو ان الحزن لم يهزمني ذلك الصباح، لظلت رادميلا معي. كنت الآن بنظركم ظافراً.. لكن.. وايفان ثعلب، لا يكلُّ ولا يتعب، اذ ما كاد يراها تخرج من حزني، حتى حاصرها، واستسلمت له بسرعة لتقتلني، ثم هربا معاً. عندما هربت رادميلا رأيت بعيني هوة ساحقة تمتصني، ولم أستطع أن أقاوم.. ثم أصابني الهلع.

أما تلك الابتسامة الصغيرة الحزينة التي ارتمت علي، فقد جعلت الأرض تغور، آه ما أشد عذاب تلك الابتسامة. كانت متشنجة ومذعورة. وأنا... سموا أفكاري أي شيء، لأن الأرض لم تحمل على ظهرها من هو أجبن مني. كنت في تلك اللحظة أرنباً مقوس الظهر وملعوناً. كنت أخاف من ظلال الأشجار، من صوت الريح. وأنتم أيها الناس.. يجب أن تجلدوني مئات الجلدات. لا تكونوا رحماء معي، وأنا لا أستحق الرحمة أبداً.. ابصقوا علي.. لو ان كلمة قلتها، لو ان مسَّة قدم أخرى، ابتسامة شجاعة... آه اتركوني، لقد تعذبت أكثر مما أطيق.. والآن، وبعد مرور السنين، اذا سقط المطر.. إذا لم يسقط المطر أتعذب.

نقر على كتفها، أرتجفت، تلفتت بذعر. كان وجهه جافا، وشعيرات حمراء، من أثر نزيف داخلي لا ينتهي يغطي وجنتيه، لم تكن تحمل رغبة أو علامة تعبر عن شيء ما. صلابة واثقة، ورضى... ثم أوامر مختصرة.

مشت إلى جانبه بهدوء قطة. احتواني كون أخضر. كنت أرشح جبناً. تحولت إلى حيوان مذعور محاصر ولا يقوى أن ينظر في العيون خوف ان يصعق. كنت ألهث وأنا أحاول التنفس. أما الأصوات، غير المسموعة،

التي ماجت داخلي، فكانت ترتطم بجدار صدري، ويصبح لها دوي هائل موجع. قلت لنفسي بعد ان غابت: «آه لو استطعت أن أرد عليها بابتسامة واحدة».

تصوروا.. كنت أتظاهر بمتابعة اللاعبين، لكن لم أر شيئاً. أما وهي تبتعد فتملكتني جرأة مذهلة. بدأت أنظر اليها، اتابعها. كانت تسير في الوسط، زوجها ناحية اليمين، والولدان ناحية اليسار، كانت قدمها الصغيرة، وهي تنتقل تدوس قلبي في كل خطوة، كانت خطوتها ترحف في دمي، تركض. شعرت بالنعمة والحزن. صرخت من العذاب: «أيها الرب الكلي القدرة أريد قليلاً من الهواء لكي لا أختنق». ومع كل نقلة قدم، في الساحة الفارغة، أحس دمائي تنفر كأن ضغط القدم يحز رقبتي وعيني. وأتذكر رادميلا.. وأتذكر ايفان. وأخاطبها بصوت مبحوح: لن أنسى لكما هذه الاساءة.

لو ان رادميلا لمست مدى العذاب الذي يركض في صدري لغفرت لي حزني. لكنها قالت لي بتعالٍ وهي تتركني:

– احمل معك التوراة مرة أخرى، واقرأ على قبور القرية المجاورة.

«أكره الحزن يا رادميلا. لا أحبه أبداً. وهل تتصورين رجلا على ظهر الأرض كلها يحب أن يكون حزيناً»؟ كدت أقول لها هذه الكلمات التي عبرت رأسي، لكني لم أفعل. ظللت صامتا.

نظرت رادميلا إليَّ وهزت رأسها لما رأتني صامتاً، ثم قالت:

– عشرة أيام في الجبل، الى جانب البحيرة، وبعدها نعود إلى الدراسة والعمل. يجب أن ننسى. وأنت... لماذا لا تريد أن تنسى؟

لم أقل لها شيئاً أبداً. وأنتم لا تستطيعون أن تقولوا أي شيء. اضحكوا بسخرية، ولكن دون أن أرى. واذا علت قهقهاتكم فسوف أشتم مثل ابليس، سوف أقول لكم: أيها الخنازير. يا من تفتقرون إلى القلوب. يا من بالت عليكم أمهاتكم لكي تشفى الدمامل المنتشرة فوق صدوركم ووجوهكم.. لن أقول هذا فقط، سوف أقول أكثر: أنتم.. يا أربطة العنق.. سوف أشنقكم بهذه الأربطة ذات يوم. لن أكون رحيماً. الرحمة لا تعرف طريقها إلى قلبي. ومن تريدون أن ارحم؟ الصدور المجوفة؟ الصدور المليئة بالقيح؟ أنتم؟ لا تخافوا.. سوف أتصرف كوحش.

.. وأنت يا رادميلا.. آه لو ان تلك الليلة لم تنته. لو كانت لي قدرة ثور أو رغبة كلب، لكنت الآن تلبدين إلى جانبي مثل قطة مقطوعة الذيل. كانت تلك الليلة قصيرة، فاجعة الحزن. وكنت ثوراً هرماً مهزوماً. تعبت بسرعة. ارتميت. وفي الصباح أصابني الحزن والندم. ولم تحتملني... تركتني رادميلا. والآن.. وأنا أرى الباب يبتلع قديستي ولا أعود أراها. أضع اصبعي في عيني وأضغط. لم أكن أريد أن أرى شيئاً. لم تعد موجودة.. ذهبت.

أين ذهبت؟ هل تخلع ملابسها الآن؟ هل تقف أمام المرآة لكي تختار ملابس جديدة؟ وهو هل يقوى أن يحوّل نظره عنها لحظة واحدة؟ كيف يستطيع أن يترك ثانية تمر دون أن يزحف تحت عطرها؟ دون أن يمرغ وجهه عند قدميها؟

وأنت أيها الاله، يا من أوكلت إلى الآباء المقدسين تلقّي الاعترافات.. كان أولى بك أن تفعل شيئاً آخر.. شيئاً أفضل. ان تأمر هؤلاء الذين

لا يكفون لحظة، حتى أثناء القداديس، عن الخطيئة، أن تأمرهم بالصمت المطلق... وان تقف لحظات خشوع لكي تتجلى قدرتك أكثر.. ان تقول لرادميلا: «شيء من الحزن غذاء القلب». أو أن تقول للشعيرات المنتشرة على الوجه الصلب الراضي: «أترك هذه الفراشة، الموجعة القلب، اتركها تلون الحياة بموسيقى الفرح». لكنك، أيها الرب، لم تعطني قلبا شجاعاً. لماذا لم تقبل لقلبي أن يكون باسلاً مرة واحدة فقط؟

هل كانت في غرفتها تبكي؟ تفكر؟ لماذا تبدو حزينة هكذا؟ قلت لها بيأس: «لماذا الحزن أيتها القديسة المتوجة في قلبي إلى الأبد؟».
شعرت بلفحة الكآبة تخنقني لما رأيتها هكذا حزينة.. وتمطت كآبة سوداء في قلبي لما تصورت ان الانسان يمكن أن يحزن هكذا!

في وقت ما.. (لا أدري أي وقت، لأن اموراً كثيرة عبرت رأسي دون روية) جاءت إلى الصالة وحدها. كنا وحيدين في الصالة. تصوروا.. كنا وحيدين. شعرت بالخوف. بدأت أرتجف. انقذفت إلى ذاكرتي كلمات قرأتها ذات يوم على قبر. نظرت إليها. كانت حزينة بشموخ. قالت لي عيناها وهما تنسكبان علي: ماذا تريد؟ نعم قالت ذلك عيناها. قالته بطريقة آسرة ومدمرة. أصابني الخوف أكثر من قبل. تكومت. استندت إلى الكرسي لكي لا أتمزق. سقط كرسي آخر من الحركة البلهاء التي تموجت في داخلي. كان لسقوطه دوي يخض الدم.. لكن ابتسامتها التي حاولت أن تلملمها بثني رأسها، جعلت كل شيء متفجراً.
جلست. أخذت مكانا بعيدا وجلست. نظرت اليها بارتباك. هزت رأسها وكأنها تصمم على شيء أو تغني. كنت اريد أن اجمعها بطريقة ما لاضمها في عيني. كانت تنظر عبر الزجاج وتفكر. اخرجت سيجارة من حقيبتها. شمت رائحة التبغ بتلذذ. آه.. لو أن الشمس تحولت في يدي إلى

جمرة. لو أن ذلك حصل مرة واحدة لأوقدت لها السيجارة واحترقت. كنت اريد أن أفنى. أن اذوب. لماذا لم اقترب؟ لماذا تركتها تشعل السيجارة والقداحة الذليلة تنام في جيبي كأنها جثة حمامة؟ تطلعت الي اكثر من مرة قبل أن تشعلها. بدا لي انها لا تجد كبريتا.. كنت أعمى. كنت جبانا. وأنتم ايها الاباء المقدسون.. هل تحاسبون رجلا جبانا، ولا يحمل في قلبه رغبة شريرة، ويريد أن يشعل سيجارة امرأة حزينة ولا يستطيع؟ يجب أن تقولوا شيئاً. ان الاعترافات التي ارتمت في ذاكرتكم لا تستطيع أن تهز شعرة في عرش الرب.

بدا لي كل شيء دون معنى.

فجأة نهضت. لم استطع أن انظر اليها. أحسست بنظراتها تحاصرني، تلاحقني. لكن برعونة يائسة تصلبت عضلاتي. اصبحت لا انظر الا إلى أمام.. وفي لحظة لم أعد أرى شيئاً.

وفي المرحاض... الذي ذهبت إليه دون أن أدري.. لم أفعل فيه شيئاً، سوى اني قذفت القداحة بازدراء.. وخرجت.

كان مطر الصيف، لكنه هذه المرة فقد قسوته وكثافته وبدا مزدهرا عابثا واقرب إلى الرذاذ.

ابتعدت كثيراً عن الفندق. استندت إلى شجرة وبكيت. لأول مرة اجد نفسي بعد سنوات طويلة ابكي. قولوا اقسى الكلمات. ابشعها. قلبي الذي بكى. كان قلبي كطفل يبكي دون أن يدري، ولا يعرف لماذا؟... وأنتم.. الكبار.. المسنون، الوقورون، المزهوون... تسخرون من قلبي الذي بكى؟ لا يهمني، سوف انتقم منكم ذات يوم.

في وقت ما (لا ادري أي وقت.. ان ذلك شيء غريب للغاية) مر ثلاثة فلاحين. قلت لاحدهم، وكان يضع غليونا في فمه:

- لديّ تبغ. تبغ جيد، واريد نبيذا جيدا بدل التبغ.

كانت طريقتي في الكلام لذيذة.. أو هذا ما بدا لهم. ضحكوا. نظروا الي بحب. قال لي واحد منهم:

- إمش معنا وخذ زجاجة كبيرة من النبيذ.. ولا نريد التبغ.

- التبغ أو لا اريد شيئاً.

هزوا رؤوسهم بصمت ومشينا معاً. كنا أغلب الوقت صامتين. لكن قبل أن نصل القرية، انفجر واحد منهم بضحكة عالية، دون سبب. نظر الآخران اليه باستغراب، ثم شاركاه الضحك. قال الذي ضحك اولا وهو يغرق في الضحك اكثر من قبل:

- رأيت مرة رجلا اسود قرب السوق. كان حزيناً اكثر مما ينبغي، طلب الي أن أعطيه نبيذاً مقابل حذائه.. رفضت. رجاء نبيذاً مقابل شيء اهم من ذلك بكثير.

وبلهفة سأله احد الرجلين:

- ماذا اخذت منه؟

قال:

- في الليل اخذت افكاره.. كان يفكر بالانتحار من اجل امرأة.. لكن في الليل بعد أن شربنا وغنينا وضحكنا كثيراً.. بدا الرجل يبكي ويشتم نفسه.. وفي الصباح لم يفكر بشيء سوى أن يهرب منا!

عندما سمعت القصة توقفت.. وتوقف الرجال. نظروا إليّ باستغراب.

قلت :

– لا اريد شيئاً!

ولما ابتعدت قلت كلمات اظنهم لم يسمعوها. قلت لهم :

«انتم رجال ماتت قلوبهم... ولا تعرفون معنى الحب».

ركض ورائي احد الرجال الثلاثة.. قال والمسافة بيننا لا تزال خطوات كثيرة :

– تعال يا بني.. عندنا كل ما تريد.. النبيذ والحب.

توقفت حتى وصل.. نظرت في وجهه. بدا حزيناً. قلت :

– كنت أمزح.. لا اريد شيئاً!

لم يفهم أول الامر.. ظل ينظر اليّ، لكن لا يراني. وتأكدت أن هما في قلبه يعذبه. استخرجت سيجارة.. وأولعتها.. ثم قدمتها اليه. تناولها بصمت وهز رأسه. قلت وأنا استعد للرحيل :

– الافضل أن اعود.. والأفضل أن تعود انت.

هز رأسه بأسى.. ورفع يده بتحية صغيرة وأَسف.

قلت لنفسي وانا اتجه الى الفندق : ايها الآباء المقدسون.. تعالوا واسمعوا اعترافات رجل حزين. الأرض مليئة بالرجال الحزانى. وحتى الآن لم تسمعوا سوى اعترافات المخطئين.. اما الذين يموتون كل لحظة.. فأنتم لا تعرفونهم.. وحتى الذي في السماء، يستند على يد ويعبث باليد الاخرى، لا يعرف الآلام التي يعاني منها الحزانى.. واذا كان يعرف فلماذا خلق هذا المقدار كله من الحزن!

لما وصلت قريباً من الفندق نظرت الى الخلف. لم أر الرجال. كانت اضواء القرية تبدو باهتة متعبة، كأنها تسحب نفسها من اعماق مغارة الكراهية!

حتى التاسعة نمت. في السهرة لم أجد مكاناً في الصالة الا بصعوبة. كان الغرباء قد اتوا، أما هي فلم أرها. هل أتت؟ هل ذهبت مبكرة؟ الا تزال حزينة؟ وهل يحتمل أن تكون قد أوت الى فراشها جائعة؟ وهو.. أين هو؟

كان الغرباء.. وكانت رادميلا وايفان. شربت كثيراً تلك الليلة. وقلت لفتاة أرادت أن تراقصني عندما حان دور النساء في طلب الرقص:

– قلبي يطفح بالحزن. قد ارقص.. لكن لو أن راقصاً آخر كان بدلا عني لقضيت ليلة هانئة.

نظرت الي باحتقار ولم تجب. لم اكن أنا الذي نطقت بهذا القول المأثور.. فكؤوس الكونياك ملأت راسي بشجاعة نادرة!

طوال صباح اليوم التالي لم تظهر. رأيته ورأيت الاولاد. اما هي فلم تظهر. هل كانت تنام؟ هل انتحرت؟ وعيناها.. القنديلان اللذان يربض فيهما عبث الاله، قوته وجبروته.. وجوده ونفيه.. اين هما؟ قلت لنفسي بنزق: ايتها العيون التي انفجرت في ظلمة الحياة التي اعيش فيها. سوف اعبدك. انا مجوسي اكثر من مجوس الارض كلهم.

وأنا اغرق في افكار متشائمة، تذكرت قصص العشاق الصغار الذين انتحروا.. الذين شربوا السم.. الذين علّقوا انفسهم بحبال على اشجار الزيتون.. وماتوا. الكتب القديمة تحكي عنهم، تحكي عنهم بأسى. انا..

لا اريد أن انتحر. لا اجرؤ على التفكير بهذه الجسارة. هل اصبحت كبيراً؟ و.. قلت لكم لا ازال مراهقاً.. والكبار؟ كيف انتهى الكبار المسنون؟ الشعرات البيضاء تتوغل في رؤوسهم.. الغضون تربض بهناءة حول الفم والعينين.. كانوا كباراً.. ولكنهم احبوا.. وهل انتحروا؟ هل قرأت هذا في كتاب؟ سمعته؟ توهمته؟ ليس من حقكم أن تستجوبوني. ما اقوله لكم حق.. وعليكم أن تصدقوا!

وانا.. الدبيب الزاحف علي، والذي يلعق قلبي بنعومة موجعة. ماذا اسميه؟ اللهفة؟ الحب؟ لنترك كلمة الحب، انها خطيرة لدرجة لا احتملها، انها شديدة القسوة. قد اخطئ في استعمالها، وربما تحولت على لساني الى انشودة لا يجدر أن اتركها طليقة هكذا. ان ما احسه اقرب إلى رغبة البكاء.

حكيمكم الاعور يصرخ الآن: قلت لكم ما يحتاجه هذا الرجل هو الحنان!

وانا اصرخ في وجه هذا الحكيم، اصرخ بجسارة ترعبه، حتى يبول في ثيابه: الانسان المنسي في هذا الجبل.. مطر الصيف. الوحدة، الشوق الجارح لانسان، لامرأة.. لا .. لا اكذب عليكم، اكذب.. ولكن بمقدار حبة الدواء الصغيرة. كنت في ذلك المنفى الجبلي اشتاق لعناق رحيم، ليد صغيرة دافئة تقبض على يدي. كنت أريد عينين اذوب فيهما حتى اتلاشى.. وكانت هي.

لو قلت لكم أن افكاري نظيفة مثل اوراق اشجار الصنوبر المغسولة بمطر الصيف، لكذبت. لكن لم اكن افكر بالمضاجعة. لم افكر أن تتحول هذه المرأة بين يدي إلى رادميلا.. كنت اريد أن المس يديها. أن اقبلها. أن

اضع راسي على حضنها واغفو. اذا فكرت اكثر من ذلك اقطعوا رأسي واعطوه للكلاب.. وأنتم ايها الشديدو التزمت.. ماذا تستطيعون أن تقولوا عن الافكار الصغيرة التي تحركت في رأسي؟ الخطيئة؟ ولكن أين هي الخطيئة؟ حتى هذه اللحظة لا اشتهيها. ووصية المسيح التي تستندون اليها لا يمكن أن تجعلوها مقصلة لتنتزع رأسي بكل هذه البساطة. لم اشته امرأة غيري.. كل ما اردته أن اغفو في تلك الجنة لحظة واحدة ثم اموت!

رادميلا. شعر متطاير في عتمة المساء على كتف ايفان. شفتان غليظتان شهيتان. عندما كنت اقبلها لم تكن شفتاها مثيرتين كما رأيتهما فيما بعد وهي تقبل ايفان.. «اين ستهربين مني يا رادميلا!» المدينة تنتظرنا. المدينة وايام الشتاء الطويلة. وفي المدينة سوف اكتشف شفتيها مرة أخرى. «ارفعي راسك يا رادميلا. انظري الي. لا تتحركي.. أريد أن ارى الشفتين».

لا اريدك ابداً يا رادميلا.. هنا. لو كنت بعيدة. لشعرت بالراحة. القطة الماكرة التي تنام بين ثيابك لا تكف لحظة عن الخرمشة. تبتعد الآن وايفان، ولكن الى المقدار الذي تسمح لي أن اراها. على شاطئ البحيرة تدور، حتى اذا رأت وجهي ابعدت وجهها بسرعة مثيرة وجلست. تعطيني ظهرها.. ولكن لا تكف عن النظر، وتحت الصنوبرة الكبيرة قرب النبع تختار مقعداً بذاته لكي ارى. «ايفان.. لا تصدق أن قطتك ستفلت مني». لكن شكراً لشيء ما، لايفان، للشهوة، للجبل والبحيرة.. شكراً لشيء ما، هو الذي انتزع رادميلا مني.

بقيت وحيدا. احساس الانسان بالوحدة في اماكن معينة، في اوقات معينة، احساس بالغرق. يحس انه محاصر بالمياه من كل ناحية، وحجارة

كبيرة في رجليه تشده، تجره الى اسفل، وفي الاعماق احساس بالغرق كثيف، عام، مليء بالحدة. فاذا سقط المطر اصبح الشعور بالغرق شديد الطغيان واليأس.

صحت السماء في اليوم الثالث. جلست في الشرفة، ذات الشرفة الملعونة التي كتبت شهادة نهايتي. الشمس مليئة بالدفء والروعة. البحيرة ساكنة مثل سبيكة شديدة الصلابة والثقل، والاشجار تولد مرة اخرى، تولد: اكثر خضرة. اكثر طفولة.

كانت تضحك وهي تتقدم. دفعت الباب بكتفها الايسر، السيجارة في يدها، وعلى رأسها قبعة قش كبيرة. كانت تنظر اليهم وقد تأخروا عنها خطوة. لما راتني اجفلت. تراجعت الضحكة عن شفتيها، وكأنها تعتذر. انتقلت بسرعة من الجهة التي كانت تسير فيها، وقد كانوا وراءها ناحية اليمين. إلى الجهة الاخرى.. اعطتني صدرها كله وهي ما تزال تبحث بقلق عن نقطة التوازن.

هل يمكن للانسان أن يكون شديد الروعة إلى هذه الدرجة؟ وهل يستطيع انسان آخر، أي انسان، ان يكون مثلها؟

الآباء المقدسون فتحوا دفاترهم.. ضاقت عيونهم وارتجفت. يقولون في اعماقهم المظلمة المليئة بالحقد والشهوة: الآن يقع هذا الانسان.. الطير يقترب من الفخ. واذا كانت وصية السيد المسيح، والتي نهت عن اشتهاء زوجة الغير لم تطبق عليه، فنحن الآن نطبق عليه وصية الخطيئة الكبرى.. الخطيئة المميتة. يجب أن يعترف. أن يقول كم من الخطايا تموج في صدره.. ولكن اصبعي الذي وضعته في عيني لأخنق الافكار الشريرة،

الاصبع نفسه سأمده في اعينهم. سأخترق هذه العيون، لأقول بصوت يشبه سقوط الحجارة في واد سحيق مليء بالماء الساكن.

هل يمكن لانسان أن يفكر باغتيال فراشة صفراء وسوداء؟ فراشة قاسية الجمال وحزينة؟ الآباء المقدسون قد يفعلون... يريدون ملء اوقاتهم الفارغة باغتيال مخلوقات الله الصغيرة. لم افكر في ذلك لحظة واحدة. لم تكن هذه المرأة فراشة. لم تكن طيرا ملونا. انشودة. لم تكن غصنا من شجرة زيزفون صاحبة الطهارة والنقاء، لم تكن موجة صغيرة مسننة الاطراف. كانت اكثر من ذلك بكثير.. وأنتم ايها الآباء.. كفوا اذاكم عني. وانتم ايها الآخرون. لكم كل الحق في أن تقولوا: ابله. المراهقة لا تكفي. الحرمان صغير مثل بئر جاف.. ما تسمعونه الآن اقرب إلى البلاهة.

في الثلاثين.. اكثر قليلا.. اقل قليلا. لا يهم. في الجبل العالي المليء بالخضرة والتفتح، ورادميلا المرأة الشهية وغيرها من النساء. ولكن بالنسبة لي ليس الا هذه المرأة التي تطوقها الآن مجموعة تسير وراءها مثل حاشية.. والزوج بقميصه الملون وصمته.. واخيراً صحته النابية.

لم اختر، ولم ارتب شيئاً. وقع الأمر دون أن ادري. وقع فجأة واصبح شلالا من الحمى والحصار.

هل احنت راسها بتحية صغيرة؟ هل رايت ذلك أو توهمته؟ ان شيئاً ما وقع. وجدت نفسي اتكوم فوق الكرسي، اريد أن اغوص فيه. لو امتلكت الجسارة لهربت. لوقفت كعبد فاسحا الطريق لهذا الملكوت المقدس الذي يسير على قدمين. ارتخت عضلات جسدي من الخوف.. اعذروني اذا قلت لكم أن لعابي سال دون ان ادري. احسست به كطلقة

مفاجئة فوق ذقني. وحدها التي رأت. خجلت كثيراً، لدرجة البكاء. رفعت يدي بسرعة اريد أن امسح اللعاب، وددت في تلك اللحظة لو اتحول الى خفقة ريح، لاهرب واتلاشى. لو اصبح عمودا حجرياً اخرس. كنت احس بعنفوان ثور الى الانسحاق.

الدودة الناغلة في الدم.. دودة الرجال والنساء المختنقين بالبؤس، كانت هذه الدودة تنام دهوراً، تموت، تتلاشي، ثم فجأة تنفجر، تتحول إلى ريح قوية تصفع جدران الصدر من الداخل. عندها يستحيل عليّ أن انام. يصبح النوم حيواناً له الف مخلب مغروسة في لحمي، رابضة فوق الرقبة تماماً، ويضغط حتى اذا انتهى الحلم الثقيل، ساد شعور بالذعر.. وعدت إلى تلك الحالة التي يسمونها اللهفة.

الدودة نفسها، السوداء، نغلت في دمي. كنت مختنقاً بالبؤس في ذلك الفندق الجبلي، حيث جئت التمس الراحة.. (أو النقاهة كما تحب أن تقول ميرا) وفجأة.. بعد أن رأيت تلك العيون، لم استطع أن انام. جثمت فوق صدري حيوانات كبيرة، اسنانها حادة، ولها مخالب من فولاذ.. ولما حاولت أن اهرب منها وجدت نفسي اسقط في اللهفة.

لم استطع أن ابقى طويلا. ظننت في لحظة ما انني سأموت. وفي لحظة أخرى خفت من البكاء بصوت عال. وتصورت نفسي اتحول الى لعاب لزج واغرق. ان الذي يجثو على الكرسي الابيض، ماداً رجليه على طرف السور، لا يمكن أن يكون مجرد امرأة، لها عينان حزينتان وقلب من الزمرد. ان ما اراه امامي كنزاً من حنين لا يحلم به طير.. لحظة الانتقال الاقصي جمالا إلى الريح والاشجار وماء البحيرة العميق.. آه لشد ما احس بالعذاب.

تصوروا.. لم يكونوا ينظرون اليها. كانوا مشغولين بأوراق تفوح منها رائحة التفاهة، كانوا يفكرون بتلك الكلمة اللئيمة التي تتراجع في كل ذاكرة. لتقف في ذاكرة من اخترعها مثل متسول ضجر.. اتركوا الكلمات المتقاطعة وانصتوا إلى انفاسها العذبة التي تخفق في صدرها كموجات صغيرة من الياقوت. انظروا إلى عينين لم يحلم بهما بشر. لقد كان الرب مفتونا لدرجة الانصعاق عندما صنع من الطين الاصم هاتين العينين.. ولكن هذا الرب نفسه يريد أن يغمض (في لحظة ما) هاتين العينين ويجعلها ترابا مرة اخرى. لشد ما في ذلك من عبث وقسوة. ولشد ما يخلف في النفس ألماً يصل درجة العويل.. اتركوا الاوراق، اتركوا كل شيء، وطوفوا بوجل حول هذا العرش، حول هذه النار الناعمة المشرئبة، التي لا تنطفئ.. حتى لو اراد الرب!

كانوا يحلون الكلمات المتقاطعة. سألوها اكثر من مرة، لكن لم تجب. نظرت إليَّ وضحكت.

«رادميلا.. لن اغفر لك هذه الخطيئة. لو كنت بدل ايفان، في تلك الليلة، لكسرت اضلاعك، لجعلت شعرك كومة من الصوف، تعبث بها الريح المتسللة من النافذة. لكن ايفان وهو يمسك يدك يتحول الى طبيب يخاف من العدوى.. رادميلا يا ذات الشفتين النابيتين، لو امتلكتك هذه الليلة لجعلت انهار العذاب التي تنبع من داخلي رصاصا مصهوراً يذيبك ويحولك إلى بخار ازرق مميت».. كان يطغى علي شعور أن ادمر شيئاً ما.

رادميلا ابعد مما اتصور. رادميلا في هذا الصباح تذهب بعيداً. تجاوزت شجرة الصنوبر الكبيرة وبعد قليل سوف تصعد ويدها تلوح مثل شراع مقطوع إلى اعلى التل. سبقها ايفان إلى هناك، وربما انحدرا إلى الناحية الثانية. ايفان يريد أن يبتعد كثيراً. يحس نظراتي الضجرة. يحس

برغبتي تتموج وهي تلاحق رادميلا، وكأنها الريح الساخنة. «ابتعد يا ايفان، لم اعد اقوى على أن انظر اليك».

يجب أن يقول لي أحد كيف يفكر الانسان! اريد أن اتابع هذه الرحلة المظلمة. كيف تنبثق الفكرة - الرغبة! كيف تكبر وتتمطى في الدم.. ثم كيف تتحول إلى عويل.

بالنسبة لي حصل كل شيء بغموض. رأتني اعض شفتي فأدميها، ثم رأتني افرك ذقني بعصبية، في نفس المكان الذي سال عليه اللعاب (المعذرة لهذه القذارة) نظرت الي كأنها تلومني، ثم لما اطفأت السيجارة برعونة أمالت راسها (رأيت ذلك بعيني) قليلا، كأنها ام التمعت في عينيها نظرة قاسية.

لما استعصت عليهم بعض الكلمات التفت زوجها الى المرأة والرجل اللذين كانا يجلسان معها، التفت بفخر اقرب الى الغرور، وقال:

- ليليان هي التي تحلها!

نظر اليها بطرف وجهه.. اقتربت منه مرغمة. اكبَّت على الاوراق تحاول أن تفك بؤسها. وفي تلك اللحظة المدمرة المجنونة.. هربت..

عرفت اذن اسمها..

وانا اصعد باتجاه شجرة الصنوبر، بدأت اردد اسمها، رددته مرات كثيرة. تركت حروفه تنساب في اذني ودمي. رددته بصوت عال. ثم بدأت اكتشف اسمها في الاصوات حولي. كان يصعد من صوت الريح. من صوت الطيور الصغيرة (سمعت جندبا صغيراً يردده) سمعته أقرب إلى الوضوح عند الجدول. كان الجدول اكثر وضوحاً من كل شيء. كان يقول

بلا توقف: ليليان.. ليليان.. ليليان. اتوهم؟ احلم؟ لا يهم. يمكن أن تقولوا الكلمات الكبيرة التي يخجل الناس الوقورون من أن يقولوها بصوت عال. اسمح لكم، لن اغضب. ماذا تعرفون عني؟ اجيبوا ان كنتم رجالا شجعانا. سوف تقولون الكلمات المبتذلة اياها. الكلمات التي يجد لها حكماؤكم مرادفات غير التي يرددها المتعبون والسكارى.. يستخرجونها بوقار ومشقة من كتبهم الثقيلة الوزن.. اعرف أن ما يقولونه لا يعادل ذبابة.. كما لا يعادل جثة فيل ميت!

رادميلا هي التي رمتني بالحصى. كنت غافيا تحت شجرة حور، قريباً من النبع. لم أكن نائماً، كانت عيناي مغلقتين، أحاول أن أستعيد صورتها. كنت اراها اشد وضوحا من شجرة الحور، اشبه ما تكون بالماء.. رادميلا وهي ترمي الحصاة الثالثة لم تكن اكثر وضوحا من ليليان التي كانت بعيدة كثيراً في ذلك الوقت!

جلس ايفان بجانبي تماماً. لم يكن يريد أن ينظر الي مباشرة. كان يريد أن يراني من خلال انعكاس صورتي في عيني رادميلا. غير جلسته اكثر من مرة. رمى عدداً من الحجارة في الجدول، كأنه يرجم احداً، وعندما قدمت له سيجارة اخذها بعصبية، فركها بين اصابعه، ثم اشعل عوداً من الثقاب لسيجارته فقط. «اهذه كل وسائلك يا ايفان في الحرب التي نخوضها؟ انظر إلى رادميلا.. انظر اليها جيداً، وفي عينيها بالذات.. انها تشتهي كل الرجال.. وانت لا تتعدى واحداً، واحداً عصبياً اقرب إلى أن تقتل نفسك من الغيرة!».

لن اخوض حرباً.. انا الذي قررت أن لا احارب، حتى لو اراد ايفان. ما افكر فيه اكبر من كل الحروب، اقسى منها، اشد عذاباً. «اذهب يا ايفان. اتركني وحدي.. اريد أن اردد اسم ليليان بصوت عال،

اريد أن اتمثلها في لحظات فتونها الاشد روعة من كل شيء. ايفان.. لك عذابك الآن، وفي كل وقت، وانا:.. الست انساناً يا ايفان؟ هل تريد أن تكون مثل الآخرين فتنظر الي تلك النظرة المشوبة بالعتاب ورغبة التحدي؟ اتركني. لا اريد منك أي شيء «وانت يا رادميلا.. هل نمنا معاً؟ هل عرفتك في وقت من الاوقات؟ تخطئين كثيراً اذا تصورت ذلك. اما الرغبات فالمدينة تابوت كبير يتسع لكل شيء!».

رجعت إلى الغداء متأخراً. كانت الصالة فارغة والخدم يجمعون المفارش. نظروا اليَّ بضيق، ولكي لا ازعج احداً، قلت:

– اريد قدحاً من الكونياك فقط.. وسوف اجلس في الشرفة.

ارتاحوا. قال لي الشاب الصغير، الذي يتحول إلى راقص ماهر يجذب الانظار كل ليلة، وهو يضع القدح أمامي والى جانبه كوب الصودا:

– العشاء هذه الليلة في السابعة!

وابتسم كتعزية عن الغداء الضائع!

وفي المساء تغير كل شيء: النساء لبسن احسن الثياب واجملها. شباب القرية جاؤوا إلى الفندق وظلوا جماعات في البداية حتى ألفوا الجو ثم ضاعوا بين الناس. الرجال لبسوا بذلات داكنة وظهروا اصغر من اعمارهم. رادميلا وايفان لم يظهرا الا في ساعة متأخرة، وقد بدا عليهما الاعياء.

اثنان كانا يفيضان حزناً رماديا شاحباً.. ليليان وأنا. لم نرقص. رفضت جميع عروض الرقص، بدت قاسية في رفضها. أما زوجها فقد بدا سعيداً في كل مرة وهو يراقص تلك الشقراء الطويلة. كان يبتعد،

يذهب إلى اقصى الحلبة. وهناك ارى ضحكة صغيرة تطفو على وجهه، وأرى يده اليسرى تتحول إلى ملقط رطب وهو يضغط على خصرها. لم يبد عليه الندم لحظة. عندما تعب، وجلس كل في مكانه، بدا قلقاً، وصامتاً، كان يراقب الراقصين اغلب الوقت.. ولم ينظر إلى القديسة!

تخطئون كثيراً ايها الآباء المقدسون اذا ظننتم أن السماء وحدها مكان السعادة. على هذه الارض يوجد شيء ما . لا ازعم انه اكثر من الفرح، وما يحتاجه الانسان هو الفرح.. اذا اراد أكثر منه ضاع في متاهة البحث عن وجود شيء لا وجود له!.

في الساعات الثلاث التي ظللنا خلالها في الصالة، شعرت بفرح حقيقي. فرح لا يحدث للانسان الا نادراً. عيناها نوافذ مضيئة، تعلن بين ارتفاع الجفن وسقوطه احتضاناً بكرا لما يمكن أن يعتبر اتحادا ازليا بين كل الاشياء. السيجارة بين اصابعها ابتهال لقوة ما أن تفك عنها الحصار. اشتهاء حقيقي وخصب للحياة. اما قدح النبيذ الذي لم يتغير، فقد انعقد في ذاكرتي كتاريخ حقيقي ووحيد لما يمكن أن يسمى الفة بين اثنين. تمنيت لو اصبح ذلك القدح.. كنت اتطلع اليها عن قرب بتوسل محتضر، برجاء المحكومين التائبين. كنت اريد أن اقول لها: «يدك ايها السر المقدس.. يدك وهي تلتف على القدح تلتف على عنقي كخيط الحرير. شفتك وهي تعانق حافة القدح مثل عناق الامهات لاولادهن الذاهبين إلى حرب بعيدة.. وانفاسك التي تنزلق بنعومة الرمال فوق كل شيء هي بداية ونهاية الحياة بالنسبة لي.. ما اشد بؤس القلب اذا تحولت الاشياء الخارقة النعومة والحساسية إلى كلمات ميتة تقف في الحلق مثل اشواك سمكة عتيقة».

لا يهمني ما تقولون. كنت اشتهي واحترق. كم مرة التقت عيوننا؟ كم مرة افترقت؟ لا اعرف. فكرت أن اركض في الظلمة، أن اسقط في البحيرة واموت كأكثر رجل فرح في هذه الدنيا. فكرت أن انام تحت شجرة الصنوبر أو بجانب النبع. كنت اريد أن اغني. أن اعفر وجهي بالتراب. كنت احس بحنين لا يوصف للبكاء!

أي شيء احتمل؟ قولوا ما تشاؤون. لم اكن ارغب في اكثر مما حصلت عليه. دفنت نفسي في عينيها وندمت وفرحت وهاجرت.. ثم رجعت. كانت عيناها دافئتين وقلبها كقطعة المخمل. كان قلبها رضياً، عاتباً، منتعشاً. ضحكت اكثر من مرة، وانا ارفع الكأس لنشرب معاً. لم تشرب الا قليلاً، أما أنا فقد شربت اكثر مما اشرب في العادة، ولكن كنت احس نفسي مشعاً مهتاجاً.

عندما هدأت الموسيقى، وغادرت الشقراء مع شابين وثلاث فتيات اخريات الصالة، بدا زوجها عصبياً واقرب إلى الصمت المتوتر، حتى اذا نظرت في الصالة بضجر، التفت حواليه.. وبقسوة وبشكل مفاجئ.. يدق على الطاولة، اشارة إلى انتهاء السهرة.. وغادرا.

تمنيت لو ادوس في نفسي الاماكن التي داستها بأقدامها، كدت افعل ذلك وانا اتهيأ للنهوض. لكن رادميلا وايفان ظهرا تلك اللحظة. انضما الي وسببا لي تعاسة وارتدادا. كان ايفان وحده المتعب، أما هذه الشقية، فانها قطة لا تمل الركض ولا تتعب. امسكت بيدي عند الساعد، وايفان يتابع بفتور وارتخاء، وقالت:

- لو انك لم تأت!

– رادميلا.. لماذا تعودين إلى مناكدتي؟ هل يروقك استفزازي دائماً؟

ضحكت بطفولة، وهي تضغط على ساعدي، كأنها تختبرني. قالت:

– الناس يأتون إلى هنا لكي يقضوا وقتا ممتعاً، وأنت حملت معك من المدينة احزاناً اضافية وجئت لكي توزعها على اناس لا يروق لهم أن يحزنوا، أو يروا بشراً حزينين!

لم اكن حزيناً إلى المقدار الذي تشير اليه رادميلا. كنت في تلك الساعة ابتهج من الفرح والنشوة، لكن طريقتي في التعبير عن فرحي بدت ساذجة، حتى كادت رادميلا أن تطفئها بكلمات قليلة!

نظرت إلى ايفان باشفاق، بدا هرما مرهقاً. فكرت بخبث بمؤامرت صغيرة يكون ايفان ضحيتها، لكن.. وانا افكر سمعت من جديد موسيقى العصافير. انهم يعزفونها للمرة الثانية تلك الليلة. عندما عزفوها اول مرة بدت لي وهي تتابع الموسيقى مثل جدول صاخب يمتلئ فرحاً. الآن.. في المرة الثانية، احاول أن استعيد حركاتها البراقة، رأسها وهو يتمايل، جذعها عندما كان يتقدم الى الطاولة وبيديها الاثنتين تحتضن كأس النبيذ.. هكذا كانت.

صب لي ايفان قدحاً.. ودون أن اشعر حركت يدي، فسقط القدح. اندلق النبيذ على ثوب رادميلا، شهقت، ثم ضحكت بعصبية وهي تتراجع كقطة مذعورة. لم يكن ممكنا عمل شيء البتة. هزت كتفيها دون اهتمام، ورفعت الثوب كثيراً.. بان ساقاها. كان الساقان بشفافية النبيذ. كدت امد يدي. نظرت طويلاً وأنا احس الغيرة تفترس ايفان وتعذبه.

هنا يحق لاي اسقف قصير، لاي راعي كنيسة، حتى لو كانت كنيسة قروية في مكان منعزل، أن يفتح كتابه المقدس، أن يفتحه دون خوف ويطبق علي الوصايا كلها.. كنت ملوثاً وشبقاً واردت أن احارب ايفان. كانت الدعوة في عيون رادميلا مباحة صاخبة، وقد شعرت بلذة اقرب إلى الاشتهاء في انهدال شفتها السفلى، وبدت فرحة وهي تراني انظر الى ساقيها.. هكذا.

لما انتهت موسيقى العصافير، بدأ الموسيقيون يشربون انخاب العشاق.. ثم شدوا اوتار الآلات، وبدأوا جولتهم بين الطاولات ليعزفوا. كانت فرصتي لان انسحب. قلت لايفان، اريد أن اعزيه بخشونة:

- يجب أن يعزفوا لحن «كل ليلة.. لك يا حبيبي!»

رادميلا متوحشة، في ثيابها رقة المرأة وشبقها، قالت لي وهي تشد على ساعدي:

- يجب أن تقضي الليل معنا، دعنا نسمع هذا اللحن معاً.. وانا كل ليلة لايفان!

كانت نظراتها تنزلق تحت جلدي، شعرت بدبيبها صاخباً عنيفاً، ولم تنظر إلى ايفان الا عندما غير جلسته دلالة الاحتجاج وبدا شاحباً.

لما كان الموسيقار الغجري يقترب نظرت اليه وغمزته. ابتسم وهو ينظر إلى رادميلا. وضعت نقوداً في يده وقلت له هامساً:

- اعزف لنا لحن «اغير الاصدقاء مثلما تغير الاشجار اوراقها».

وقبل أن يبدأ الموسيقي، سرقت نفسي مثل هر وركضت. عند الباب، لما تأكد ايفان من اللحن، التفت إلى رادميلا، وبدا لي أن حديثه

معها قاسياً، لكن في تلك اللحظة كنت بعيداً، فلم اسمع شيئاً، وبدت لي يد رادميلا، وهي ترفعها، اقرب إلى التهديد، ولم تكن تحية وداع!

ذهبت إلى الشرفة. نظرت إلى نوافذ الفندق اقرأ فيها طيف ليليان. تساءلت باصرار اخرق: في اية غرفة تنام؟ واجبت نفسي بتأكيد مسلوب: الرابعة ثم تراجعت وانا اقول: الثانية عشرة. لا انها السابعة.. لا الاخيرة، في الطابق الثالث.. نعم الأخيرة بكل تأكيد!

حاولت أن اتصورها: ليليان تنظر في الظلمة. ليليان نائمة. ليليان تنام على وجهها في السرير الايمن.. لا انهما ينامان معاً.. لا.. لا يمكن أن تتركه يقترب منها. ولم استطع أن افكر.

الظلام يضغط على الحواس، فيجعل كل شيء غامضاً، الظلام أب كبير يعطف على الحزانى.. يمد راحته إلى الرؤوس يمسح عنها تعبها، حزنها، ويحفظ الاسرار.. الاسرار الصغيرة التي لا تعني اكثر من اثنين.

لم اجسر على أن افكر بالعشاق الصغار ونهاياتهم. لم اكن صغيراً، لكن لم استطع أن افهم هذه القسوة الموحشة التي تتمدد على الارض، مثل ظل باهت تجعل كل شيء خاطئاً.

ليليان تفتح عينيها في الظلمة. هل تفكر بي؟ هل مر طيفي أمامها؟ ربما فكرت أن نكون معاً.. وتصورته يراقص الشقراء، كأنه يريد أن يضاجعها.. والا لماذا بدا حزيناً مغدوراً هكذا عندما رحلت؟ وانا.. ماذا اريد من ليليان؟ هل افكر بليليان ورادميلا وباولا معاً؟ هل ليليان مثل باقي النساء؟.

قلت لكم اشد ما يؤلمني تلك الرحلة المظلمة التي اتيه فيها وانا افكر. اريد أن اعرف كيف تولد الفكرة. كيف تكبر حتى لتصبح ولعا مهووساً لا يتوقف ولا ينتهي. ليليان وحدها التي اريد. ولكن أي شيء اريد منها؟ تكفيني يدها. لو وضعت يدها على جبيني فسوف اكون أكثر فرحاً من البشرية كلها ساعة انتصارها. سوف ازغرد مثل حيوان كان محبوساً لآلاف السنين، ثم استطاع أن يحطم اسوار سجنه ويفلت.. لو انحنت فوقي وتركت لشعرها أن يسيل على وجهي لبكيت واغرقت الدنيا بدموع الغبطة.. لو مست جبهتها صدري لتمنيت أن اموت في تلك اللحظة.. ولم اكن لاريد شيئاً آخر.

لو قلت لكم أن حياة البشر تشبه خطوط السكك الحديدية، فهل تفهمون ما عنيته؟ منذ البداية نفتقد اللغة المشتركة، ليس بيننا شيء مشترك، ليس لديكم تجاهي حتى الرغبة في أن تفهموا! لا يهمني، بدأت الرحلة وحيداً، وسأنتهي وحيداً. اربطة العنق، المحافظ الجلدية السوداء، الابتسامات المرسومة باتقان، ثم الروائح العطرية والمجاملة، هل تفتقدون شيئاً ايها السادة؟ وانا.. لا اريد منكم أي شيء، يكفيني هذا الفرح الزاهي الذي عربد في دمائي تلك الليلة، وأنا ارى عينيها مثل وردتين، وأرى ابتسامتها بحراً يعانق اطراف الارض كلها.

هل ندمت بعد تلك الليلة؟ هل اردت شيئاً أكثر منها؟

كنت وحيداً على شاطئ البحيرة. الموسيقى تصل إليّ خافتة. الاشجار غابت في الظلمة واشتبكت في هذا الوجد الذي تحمله ريح خفيفة لتحرك في الدم شهوة الاتحاد مع الطبيعة والغناء، ثم آخر ضوء اراه ينطفىء في واجهة الفندق امامي.. وانهض!

تعمدت أن اقترب من الشرفة، ردّدت اسم ليليان مرات كثيرة، تحدثت معها كما لو انها تسير معي، ونظرت إلى الصالة دون أن ادخل، لأرى ايفان ورادميلا.

في الصباح وانا انهض رأيت الباص يتحرك.. سمعت صوته اول الامر، فلما نظرت من النافذة، كان ينعطف حول الفندق ليدخل الشارع الرئيسي.

طوال اليوم لم ارها. أكلت مثل ثور، شربت، وفي المساء لم تأت. لم يظهر احد. وبدا أنّ البرنامج الذي رتبه الفندق لبعض النزلاء في جولة لزيارة بعض الاماكن قد سرقها. شعرت بالندم، لكن شعوراً هادئاً اقرب إلى الاستسلام. كنت بحاجة إلى الراحة. ان بعدها في هذا اليوم يخلق في النفس شجاعة حيوانية تدفعني لان اضرب حجارة الطريق، لان اتسلق شجرة الصنوبر، لان احاول ببلاهة صبيانية تنفيذ وصية ميرا وهي تحثني على الرياضة، خاصة رياضة القفز العريض!

في اليوم التالي سافرت مرة اخرى، لا اعرف متى، لكن عامل الفندق اجابني بصلابة محايدة وانا اسأل عن هذه الرحلة.. قال:

– كان موعدها يا سيدي في الخامسة صباحاً!

حزنت، اردت أن افعل شيئاً.. لكن كل شيء اصبح ماضياً (وانا احب الماضي... ذكرت ذلك لكم من قبل)

قلت لرادميلا وانا اتطلع إلى ايفان لاخذ موافقتهما معاً:

– ماذا لو ذهبنا في جولة على الاقدام ما دامت الجولة الارستقراطية قد بدأت واصبحنا هنا مجموعة صغيرة؟

قفزت رادميلا من الفرح. كانت موافقتها سريعة مهتاجة. اما ايفان، بعقله المملوء بالغيرة والخوف، فقد بان عليه التحفظ. فكر قبل أن يجيب، وازاء هيجان رادميلا، حاول أن يتذرع بحجة عدم وجود الأكل. قالت رادميلا وهي تقبله كوسيلة اخيرة لتضغط عليه:

– سوف احضر من المطعم غداءنا.. رأيت امس عدداً من النزلاء يأخذون غداءهم إلى البحيرة.

هز ايفان راسه موافقاً. بعد ساعة كنا قد تجاوزنا قمة التل. اصرت رادميلا أن تجلس حيث تعودت دائماً.. المقعد يطل على شرفة الفندق والبحيرة بعيدة، سابحة في خضرة داكنة.. كنت اريد أن اجدد نفسي، أن ابدو انساناً لا علاقة له بالحزن!.

الليـــلة الأخيـــرة

لم ينتبه إليه أحد حين وقف على المنصة الخشبية ، في أقصى صالة الطعام. صفق بيديه مرتين ، فتوقف الجميع عن الأكل ، وتطلعت إليه العيون حيث كان يقف. بدا بشعره الأبيض كتمثال شمعي لــه ابتسامة واسعة . فرك يديه ، تاركاً للصمت أن يحدث تأثيره ، ثم قال بهدوء تعوّده لفرط ما ردد مثل هذه الابتسامة والكلمات :

– باسم الادارة أرحّب بكم ، وأرجو أن تتذكروا الفترة التي قضيتموها هنا . وتعودوا مرة اخرى ، كما أرجو أن تذكروا لأصدقائكم فيأتوا .

سيداتي ، سادتي : اليوم آخر أيام إقامتكم : وإدارة الفندق إذ يعزّ عليها أن ترحلوا بهذه السرعة ، تعلن عن مفاجأتها الكبيرة ، لهذه الليلة ، لتكون أقوى ذكرى .. سوف نقيم حفلة تنكُّرية ، ويمكنكم أن تشتروا الأقنعة أو أية أشياء تحتاجونها من المقصف .

تبدأ الحفلة في العاشرة .. وقد تنتهي في السادسة موعد السفر !

شكراً وإلى اللقاء في العاشرة .

أي قناع ترتدي ليليان هذه الليلة؟ وهل سأتمكن من معرفتها؟ وهل يتركني أرقص معها؟ وإذا جئت ولم تأت؟

وأنا أي قناع يناسب فرحي البائس الذي سيهرب غداً في الصباح؟ أريد أن أضع على وجهي قناع غزال: عينان شاكيتان ووجه شاحب فزع، ولا شيء غير ذلك. ولكن ماذا لو استعملت وجه نعامة؟ «ليليان تعالي كما أنت لأرى عينيك، أريد أن أغرق فيهما، أما الأقنعة فانها سياج من الأشواك. لا أطيق أن أراك غير ما أنت يا ليليان. سوف ألثم شعرك. إذا انسدل الشعر على كتفي سوف يحرقني تماماً.. أما إذا أمسكت يدك الرطبة الناعمة يدي، فلن تجديني بعد لحظة، سوف أتفتت وأذوب. لا تحزني أبداً إذا تلاشيت، إذا تحولت إلى غبار رقيق لا تراه العين، سأكون سعيداً حتى درجة الاختناق، لأني أرفرف حولك في تلك اللحظة.. وإلى الأبد».

«إن أفضل ما يناسب وجهي قناع رجل ضاحك بسخرية. أريد أن أجعلك تفرحين ولو ساعة من زمان. غداً نفترق يا ليليان. لن أراك، وحتى لو رأيتك فلن تكوني قريبة إلى هذه الدرجة. أتعدينني أن تضحكي إذا لبست وجه رجل ساخر لا تظهر إلاّ أسنانه الضاحكة؟ يجب أن تضحكي. اضحكي من أجلي هذه المرة. ستكون الضحكة مصباحاً يضيء طرقاتي في الظلمة، تضيء السواد الحزين الرابض في أعماقي مثل بئر لا قاع لـها. قولي لي شيئاً يا ليليان، كل ما أريده منك لحظات فرح مسروقة، وبعدها إذا انتهى العالم، إذا انتهيت، إذا قال الآباء المقدسون أي شيء، فلن أندم».

هل أسأل رادميلا أي قناع ستلبس لكي أتجنبها؟ لكي لا أضيع وأسقط في بحيرة الجنون؟ «رادميلا.. الشيء الذي أريده منك أن تبتعدي

عني هذه الليلة. إيفان لن يتركني اقترب، أعرف هذا، لكن أنت ستعرفين كيف تفلتين، كيف تمتصين اللذة من الأعصاب ثم تتركينها رخوة هشة لا تقوى على المشي. أقول لك بصوت عال: إرحميني هذه الليلة يا رادميلا. سمي ما أطلبه ذلاً.. رجاء.. عوناً.. لا تهمّ الصفة، هذا ما أريده وستفعلين!».

ولكن رادميلا لن تكون المرأة الوحيدة. عشرات النساء ونساء القرية سيكنّ هنا الليلة. يجب أن أعرف بدقّة أي قناع ستلبس ليليان.. لماذا أظلّ مخدوعاً حائراً ومعذباً؟ وماذا لو اكتشف في النهاية امرأة غير ليليان؟

وزوجها؟ أنا رجل يطلب صدقة، هل يتكرم مولاي ويعطيني الصدقة التي أطلبها؟ زوجته؟ أي رجل على وجه الأرض يوافق على صدقة مثل هذه؟ ولكنه يبدو كريماً.. تلك الليلة، ودون أن أقنعه لم يراقصها، هرب بعيداً وظل يحتضن الشقراء حتى غادرت. لن أقول لـه كلمة واحدة.. يجب أن أجلس في صالة الفندق، قريباً من المقصف وأرقبه وأرقبها، وهما يشتريان الأقنعة. ولكن هذه الأقنعة اللعينة لا تعطي سرها، إنها مطوية، متشابهة، وعندما تتمطى فوق الوجوه بابتسامتها الساخرة، ببذاءتها، بغموضها، لا يعرف الانسان شيئاً! لو ذهبت وسألت عن الأقنعة هل أستطيع أن أستنتج شيئاً ما؟ الانسان في مثل هذه الليلة يريد أن يتخفّى، أن يتوارى، أن ينسى صفاته الانسانية. كل واحد يمل وجهه وابتسامته البلهاء، يمل النظرة الهادئة والرصانة.. أغلب الأقنعة لقرود ضاحكة، لطيور النحس والحمير وأنتم الذين صنعتم مثل هذه الأقنعة ألم تفكّروا بالبؤس، بالعذاب الكائن وراء الابتسامات؟ لماذا لم تصنعوا أجمل قناع لأروع امرأة؟ قناع الخصب والعنفوان!؛ ألا تدركون أن القناع الذي ستلبسه ليليان هذه الليلة سيكون شاهداً لقبر حياتي أتذكره كل وقت؟ أنتم

لا تعرفون ، لا أحد يعرف.. وأنتم يا من تقرأون لن تعرفوا مقدار الألم الذي أحسه.. قولوا كلماتكم إياها ، أعرف كلمات أكثر بذاءة مما تتصورون ، أعرفها بأكثر من لغة ، لكن لا فائدة من قول أي شيء الآن!

كانا يتناقشان بحدّة ، أو هكذا بدا لي منظرهما أثناء الحديث. نظرت إليها طويلاً أريد أن ألمّ بتفاصيلها لكي أنتزعها بقوة وأُراقصها مثل آلِه إغريقي. كان حذاؤها أسود وفيه حلقات صفراء معدنية على شكل دوائر متداخلة ، أما فستانها فكان بلون الربيع : أخضر هادئاً ، بعروق صغيرة بين الأسود والبنفسجي. وأي شيء آخر يمكن أن أتذكّره؟ قلت في نفسي : لست بحاجة لأن أنظر إليها ، أعرف رائحتها ، أعرف خفقة قلبها ، وحتى لو كانت ضائعة بين آلاف البشر ، سوف أكتشفها دون تعب.

قلت لرادميلا أُشجّعها على مؤامرة صغيرة :

- أي قناع تضعين على وجهك الليلة يا رادميلا؟

نظرتْ إليَّ وهي تبتسم ، كأنها أحسّت ، وقبل أن تجيب تابعت بلهجة ساخرة :

- سوف أعرفك حتى لو وضعت قناع قرد!

قال إيفان بطريقة باردة ، وكأنه يتحدّى :

- إذا عرفت رادميلا فسوف أفتح لك زجاجة شمبانيا!

- وإذا خسرت؟

سألته بتحدّ وأنا أُحرِّض رادميلا لكي يخسر. قال بطريقته الباردة المتحدية :

– لا أريد منك شيئاً، أنا الوحيد الذي سوف يراقصها طوال الليل!

قلت وقد شعرت بالظفر:

– إذا غادرت الفراش فسوف أعرف رادميلا دون شك!

ذهبت إلى الصالة. جلست قريباً من الحائط. كان المقصف إلى يساري. ومن مكاني كنت أستطيع ان أرى كل شيء دون أن أثير اهتمام أحد. مرَّ أمامي كثيرون ولم تأت. لماذا تأخرت؟ ألا تزال تناقشه حول القناع الذي ستختاره؟ هل قررا ألاّ يشتركا في هذه الحفلة؟ وإلاّ لماذا تأخرا؟

حين أطلت والتقت عيوننا ابتسمت. كانت ابتسامة العيون لا يراها أحد. لا يراها إلاّ من أدمنها، من احترق فيها. لم تنفرج شفتاها حين ابتسمت، لكن الدنيا أضاءت في لحظة، لم تضيء فقط اشتعلت بخفقات الوله واللذة. لم تتركني عيناها حتى لما أصبحت موازية لي. كانت تنظر إلى أمام، لكن شيئاً فيها كان ينظر إلي. أحسست دمي يهتز في داخلي، يخفق، يعربد بالخوف واللذة معاً. هل يمكن للانسان أن يتمنى أكثر من هذه النظرة؟

توقف زوجها عند بائع السيجار واشترى علبة. إنه يتنكّر كثيراً هذه الليلة. أخرج من العلبة، بمرح طفولي، سيجاراً، وقال يخاطبها بصوت عال وهي تقف أمام لوحة الأزياء:

– ليليان.. هل أشتري لك شيئاً؟

وتابع قبل أن ينتظر إجابتها. قضم رأس السيجار وبصق. كان يضع السيجار في فمه دون أن يشعله، ووضع يده على كتفها وهما يخرجان!

يده الثقيلة فوق كتفها، رمانة الكتف الآن تحت راحته. يتلمّس لحمها، دمها، ما أشدّ سعادته! إن سعادة مثل هذه لا يحتملها إنسان! الا يموت من هذا الافتنان اللجوج الذي يضجّ تحت يديه مثل أرض الرمال المتحركة؟ آه ليت ان قوة في الأرض حكيمة بالمقدار الضروري تنصب المشانق.. أنا أول من يريد أن يشنق.. لو وضعت يدي على كتفها، لو ان راحة يدي مسّت دماءها، لحمها، لقلت بصوت يشبه دوي الرعد: «أنت يا من يقف عند قدمي.. إرفع كرسيك المشؤوم، وليتبه كل شيء بسرعة!».

أي شيء فعلت خلال الساعات الثلاث التي امتدت ما بين العشاء وساعة الحفلة؟ ثقوا لو اني أردت الوقوف أمام قس كاثوليكي جاد وأعترف لـه بصدق، لما استطعت أن أقول جملة واحدة.. كان سينظر في عيني الفارغتين المذهولتين ويرتعش! لم أفعل شيئاً. نظرت إلى السقف، كانت الساعة السابعة والنصف عندما ارتميت، ولم أنتبه إلاّ قبل العاشرة بسبع دقائق!

لما نزلت إلى القاعة، كانت أصوات الآلات والبشر تعربد بدوي مخنوق. الطبول عارية متألقة. الآلات النحاسية تزهو وكأن لمعانها يغني. والبشر.. آه كم يتعذّب البشر من أجل أن يتشوهوا! أقنعة القرود الضاحكة سيول. القرود تقتحم القاعة، تملأها، حتى لتجعلها جبلاية حصينة بائسة! لم أجد قناع الغزال الذي حلمت بـه طوال بعد الظهر. اشتريت قناعاً هازئاً: رجل بنصف شارب، ووجه مقسوم من الوسط بشكل عرضي،

الأعلى أصفر والأسفل بلون الباذنجان الفج.. وفي وسط اللون الأصفر، قريباً من العين خدوش مثل تلك التي يضعها الهنود الحمر.. ولا تستغربوا إذا أضفت للقناع أشياء من عندي: ثقبت القسم الأسفل وربطت مجموعة من الخيوط على شكل لحية مسترسلة، خيوط طويلة غليظة، وقد جعلت ألوانها مختلفة متداخلة. لِمَ فعلت ذلك؟ ما الذي أوحى إليّ بهذه اللعبة السمجة؟ لا أعرف!

كنت أتهادى مثل فارس مهزوم. نظرت إلى الوجوه بتحدّ. نظرت إليها عن قرب. كنت أريد أن أكتشفها. رادميلا لم تخيب ظني أبداً، عرفتها خلال اللحظات الأولى، كان عنقها مشرئباً، وربما تفتش عني.. وإيفان إلى جانبها وقد تحوّل إلى قس. لم يكن يريدها أن تفلت منه، ربما عرفني. استدار بسرعة لمّا رآني أحدق فيه. لمّا استدار قلت في نفسي: قطعت نصف المسافة نحو الجنة، لن أسقط بين يدي رادميلا هذه الليلة.

وليليان أين يمكن أن تكون؟ ماذا تلبس؟ بحثت طويلاً. وقفت قريباً من رجل بدا لي أول الأمر زوجها، كان قناعه على شكل متسوّل ليس له أسنان في فمه الكبير.. نظرت حوله أريد أن أكتشف معبودتي.. لكن لم تكن هناك. «أين أنت يا ليليان؟»

لا يمكن للانسان أن يشعر بالبؤس أكثر مما لو كان يفتش عن إبرة في القش. قلّبت الوجوه، نظرت إلى السقف، بحثت.. ولم أنتبه إلى الموسيقى حين بدأت تدوي!

اختلط الناس لدرجة الالتصاق الكلي. الخطوة التالية يتحول الجميع إلى كتلة ليس لها أطراف. حالة من التداخل، رصاص مصهور لا يلبث أن

يصبح سبيكة واحدة ، لا يقسمها سوى هذا التوقف الأرعن للموسيقى ، لكن للحظة ثم تعود الكتلة إلى الالتصاق أكثر من السابق.

داسوا على قدمي وأنا أتجول . دفعوني مرات كثيرة . تراجعت . تقدمت . كدت أسقط لما حاولت تجنب هذا العملاق الذي وضع على وجهه قناع طفل !

حين دخلت كدت أموت . لم أكن بحاجة إلى من يدلني عليها . كانت بثوب أسود طويل يغطي حتى قدميها . ساعداها مكشوفان يلمعان مثل بروق متوهجة ، شعرها وهو يتساقط على كتفيها أشبه ما يكون بعاصفة ثلجية . أما الوجه .. فأعرفه أكثر من زوجها آلاف المرات .. أعرفه أكثر من إله . كان وجهها هو عيناها . القناع لامرأة كبيرة ، ليس في فمها سوى سن واحدة .. التجاعيد كثيرة حتى يمكن لريشة متوسطة أن تسير فيها دون عناء .. وخصلات شعر تشكّل بداية الجبين.

وقفا طويلاً عند الباب . كنت مسمراً بعيداً .. وانظر . جفلت أول الأمر . بدت خائفة ، وكادت أن ترجع ، لولا أن يده امتدت تطوقها وتمنعها .

وتسللت حتى أصبحت قريباً منها ، ولكن في تلك اللحظة بدأت ترقص . كانت عيناها تجوبان القاعة ، تبحث .. ربما كنت الذي تبحث عنه . اندفعت أراقص امرأة كانت تدور حولي في تلك اللحظة .. تسللت خطوة كبيرة في النقلة الثانية .. كادت تقع لفرط ما دفعتها باتجاه ليليان .. لما اقتربت قلت بأصابعي ، بعيني ، بخيوط لحيتي .. إني هنا .

في تلك اللحظة المليئة بالخطر والرهبة التقينا . بدا لي أن جسمها ارتعش حين عرفتني . تراجعت خطوة حتى لامس ظهرها كتفي .. كدت

أصرخ. كدت أذوب، لكن والمرأة القصيرة تشدّني جعلت عظامي تتصلّب وتتماسك.

الكنيسة، بأساقفتها وقسسها وحتى بشمّاسيها، تنظر الآن بأنفاس متقطعة تتابع رحلتي المدنسة.. مهلاً، استريحوا تماماً، سأقول لكم كل شيء.. ولا تغضبوا إذا لم تجدوا شيئاً في النهاية.

أتذكّر بحنين موجع يشبه ألم العظام المهروسة، ان الموسيقى كانت تعزف عندما التقينا.

أيتها السماء الملبدة، أيتها السماء الهائجة، يا صواعق تحرق حتى التراب، ويا أيتها الفيضانات العمياء، تحركي امطري واحرقي واغرقي كل خلية في جسدي، لأن هذا الجسد بعد فرح تلك الليلة لم يعد يبالي بشيء.. أي شيء!

سحبت يدي بسرعة أريد أن أخلّصها من التيار الصاعق الذي سرى في جسدي كله، لكنها كانت قريبة لدرجة الذهول، ويداها كانتا رقيقتين كنداء. أما العيون فقد انزلقت عليّ وأغرقتني!

أية حيرة يمكن أن تسيطر على إنسان ساعة الاحتضار؟ أي رعب أشدّ من لحظة الموت الكلي البطيء؟ كدت أهرب، كدت أصرخ.. أيتها اللهفة هل أنت الحب؟

قولوا أي شيء (ابتسموا.. من حقكم ذلك) حرمان.. مراهقة، حلم.. لم يعد يهمني ما دمت سلكت طريق الجلجلة.. وأنتم أيها الأساقفة، يجب أن تتسامحوا كثيراً، لاني مسيح مجوسي يحترق آلاف المرات كل ثانية. ان موت المخلص كان موتاً واحداً، أما أنا فقد متّ آلاف المرات، وما أزال أموت، كفّوا أذاكم عني.. وإلاّ..

يجدر بي أن أكفّ عن التذكُّر. من يستطيع أن يسترجع لحظات خوفه وبسالته ولذته وآلاف المشاعر الاخرى؟ من يستطيع أن يسترجعها بشموخها الأقوى من الصخر والأحدّ من الأمواس؟ ومن يستطيع أن يسترجعها بليونتها المائية، بنعومتها المتزلقة من راحة اليد؟ أنا لا أستطيع.. حاولت كثيراً لكن لم أستطع.. أأنتم تستطيعون؟ لا أعرف.. حاولوا.

في تلك الليلة البائسة الفرحة تحولت إلى رجل معتوه.

هل تصدقون أن عدد الكلمات التي قلناها لم تزد عن عشر؟ وهل تتصورون أن كائنين بشريين يتحولان إلى طفلين وهما يرددان دون تعب كلمات معتوهة؟

في تلك الليلة رددت اسمها آلاف المرات. والآن إذا أردت أن أستعيد الكلمات التي يمكن أن تعبر عن تلك اللحظة الفاجعة ماذا أقول؟ هيّا انتفضوا مثل ديوك.. وقولوا شيئاً! (اللغة ذليلة متخاذلة وتشبه عنقوداً من العنب المجرود) كانت الكلمات وهي تترنح على شفتي بائسة، بلهاء. وتشبه لغة المهانين، أو الأصوات الصدئة.

لم أكن أقول «ليليان» لأردد اسمها فقط. كنت أحول كل حرف إلى نشيد لم يحمل مثله طير، لم يحلم بـه بحّار، لم يلفظه شاعر (أنا أقول كلمات دافئة الآن) كانت حروف اسمها في مخي أشعّة دامية تسيل بآلاف الخيالات المدمّرة المشحونة على عربات الأمل المستحيل!

أما عندما قلت لها أحبك يا ليليان، فقد شعرت اني أطير. أتحول إلى غيمة، أسبح في مكان فسيح أزرق لامع. وقد قلت لها بقداسة الأنبياء:

– أريد أن أموت في هذه اللحظة يا ليليان.

هل رأيت دموعها تسقط؟ هل شدّت على يدي بتضرع؟ هل قربت خدها من رقبتي؟

أيها الانسان المهترك القلب، الغارق في وحل الصدفة العمياء، في لغة الجنادب التي فقدت القدرة على الطيران.. أنت لا تعرف شيئاً البتة!

اتركوا وردة حزينة على قبر مجهول.. اتركوا هذه الوردة دون أسف.. بل بشجاعة.. فقد شيعت قلبي في تلك الليلة. دفنت في مقبرة المجوسي قلبي.. وما يزال، حتى هذه اللحظة، يحترق، يأبى أن ينتهي.. لكن لم أعد أملكه البتة.

ليليان لن أنساك أبداً. اخطئ كثيراً وأنا أقول هذه الكلمات، لكن دعيني أقول شيئاً مجوسياً: النار التي اشتعلت في قلبي يوماً.. لن تنطفئ.

* * *

في السادسة كانت ثلاث سيارات باص تقف عند المدخل الرئيسي للفندق. والقدر نفسه، أو هذه القوة المبهمة الضالة التي ترتب كل شيء، رتبت أيضاً استمرار الخطأ.

ركبت ليليان السيارة الأولى. كانت شاحبة حزينة شديدة الروعة. نظرت إليَّ بوَلَه كافر. كانت تعلن احتجاجها على كل شيء.. وتلويحة اليد الصغيرة التي امتدّت من الشباك عندما ابتعدت السيارة كانت نداء حزيناً لطائر قرَّر أن يموت سريعاً.

● ● ●

المـــدينـــة

... باقة زهور حمراء وميرا على رصيف المحطة. كان في عينيها اعتذار عن خطيئة ما ،ارتكبتها أثناء سفري. أحسست بذلك مز رفة العين. ومن هروبها. وضعت الزهور بين يدي واحتضنتني. كانت أقل دفئاً مما تصورت. أبعدتها بهدوء ، أعدت اليها الزهور ، وأمسكت بها من يديها ، عند الكتفين ، ونظرت اليها. ميرا تعرف معنى أن أنظر اليها هكذا. ابتسمت. ارتجفت شفتها السفلى دون ارادة ، تطلعت حواليها تفتش عن طريقة للدفاع. تحركت قليلاً لتفلت من يدي ونظراتي. قالت وقد بدأت هجومها :

- تغيرت كثيراً.. هل أنت مريض؟

- متعب يا ميرا.

يبدو أنني قلت هذه الكلمة بيأس. والا لماذا بدأت نظراتها تكتسحني هكذا وكأنها رأت في عيني خطيئة أكبر من خطيئتها؟ هزت رأسها دون معنى وسألتني :

- الشحوب في وجهك ليس دليل التعب ، يبدو أنك مريض.. ألست مريضاً؟

وبأسلوب الممرضات المسنات اللواتي يقمن بالعمل ضمن شعور الواجب والامهات. وضعت راحتها على جبيني ابتسمت وأنا أسألها :

– ماذا فعلت أثناء سفري ؟.

– ماذا يمكن أن أفعل ؟ الحياة نفسها كنت أذهب الى العمل كل يوم. ذهبت الى السينما مرتين.. قرأت كثيراً.

انتظرت لحظات ثم قالت بنبرة مستسلمة :

– نظمت قصيدتين. واحدة لك والثانية..

– وقبل أن تكمل عبارتها قلت :

– وواحدة له !

– من ؟.

– له.. أنت تعرفين ماذا أعني ؟.

قالت وهي تنظر الى جهة بعيدة. لا تريدني أن أرى عينيها :

– قبل أن أسألك. قبل أن أعرف ماذا فعلت أنت، تحاول أن تحاصرني !.

– لا تغضبي. فأنا أعرف العدالة التي تعتمدين عليها في التصرف.. فما دمت نظمت قصيدة لي. فالعدل أن تكون الثانية له.

– سوف أقرأ لك الإثنتين. وسترى بنفسك !.

– والثانية.. عن أي شيء ؟.

– عن البحر.

– ما دام الأمر كذلك. فأنا لم اخطئ أبداً.. واحدة للجبل والاخرى للبحر.

– دائماً تحب السخرية !.

– افتقدتك كثيراً يا ميرا. أما البطيخة اللعينة التي حملتها طوال الطريق، فقد تحطمت عند باب الفندق تماماً، وسببت لي حرجاً كبيراً.

– طبعاً مع النساء!

– مع نفسي يا ميرا. تصوري تحطمت عند باب الفندق، بعد أن تعبت بنقلها.. عندما اقتربت من نهاية المشوار فضلت أن تنتحر!

ذهبنا الى غرفتي. بدت ميرا، والضوء يسقط عليها من أعلى، أقل اغراء، حتى أن فكرة ان ننام معاً بدت لي منفّرة، وتمنيت لو أن هذه الفكرة تتلاشى بطريقة ما.

ولكن هذه الغرفة اللعينة، بالسرير الموضوع في الصدر، قريباً من الجدار، بالضوء المنسكب بخضرة لامعة، بالصور الثلاث التي شهدت اللعبة الخطرة.. هذه الغرفة شهدتني كثيراً في الماضي، أقف فوق رأس ميرا، قريباً من الضوء، احاول أن أقرأ المجلة التي تضعها على الطاولة. وانكبّت عليها، كانت يدي ترجف، تجوس ظهرها، صدرها، وميرا ترفض، تهرب بجسمها باثارة، ثم أهوي على رقبتها. فتعطيني شفتيها باستسلام.. وأحملها كحمامة صغيرة الى السرير، ودون أن نقول كلمة واحدة، تعبق الغرفة برائحة ما، ثم تعبق باللهاث، بالزفرات، بصرخات صغيرة، وأخيراً نرتمي، كل في ناحية من السرير، وأيدينا المتعبة آخر جسر لتلك اللذة الهاربة!

هذه الغرفة شريرة، باستطالتها التي تشبه الجسر، بالمدفأة الطويلة المقابلة للسرير كأنها امرأة مدثرة، بالباب الطويل، في الجانب الآخر يوصل الى الحمام.. وحتى السجادة وقد وضعت عليها قماشة طويلة توصل ما بين الباب والسرير.. كل هذه المستطيلات تقفز فجأة لتوحي إليَّ بجسد امرأة.. بالمضاجعة.

قرأت لي ميرا قصيدة البحر أولاً لكي تدافع عن نفسها، كانت قصيدة عادية ليست حارة وأقرب ما تكون الى الوصف الخارجي. قلت لها وأنا أسحبها من ذراعها:

قصيدتي .. أريد أن أقرأها وأنا عار!

هربت مني. نفس الطريقة المثيرة التي تتبعها. فتحت الباب وهي تقول:

اذا تحركت خطوة واحدة.. هربت.

تراجعت.. لنكمل اللعبة جلست على حافة السرير، وبدأت أفك أزرار قميصي. أغلقت الباب بهدوء والتصقت بالجدار تتابع حركاتي الهادئة المدروسة. قالت وهي تعرف باقي الحديث:

– ألم تعدني أن لا نفعل شيئاً بعد أن تعود؟

– وهل نريد أن نفعل شيئاً الآن؟

لماذا تنزع ملابسك اذن؟

أشعر بالحرارة يا ميرا.. ثم ان الملابس تضايقني!

– هل تقول لي كلمة شرف بألاّ نفعل شيئاً؟

– اختبريني هذه المرة.. دون كلمات شرف!

– لا: أريد أن تعطيني كلمة.

– تعالي دون كلمات. وتأكدي بنفسك!

– ولماذا لا نجلس حول الطاولة مثل أناس عقلاء؟

– ميرا.. تعالي، لم أعد اطيق انتظاراً!.

– أهرب.. وأنت تعرفني.

وبخفة قط ركضت الى الباب وأغلقته. فوجئت بسرعتي، والرغبة في أن تثيرني لا تزال تسيطر عليها. قالت بخبث:

– قبل قليل كنت متعباً.. كنت مريضاً!.

وغيرت نبرة صوتها، فبدت هادئة. أقرب الى الحكمة. وهي تقول:

– كل الرجال هكذا.. قبل الفراش.. وبعده!.

تعرفين جيداً عالم الرجال.. وعندما قلت لك القصيدة الثانية له غضبت! هل يعاملك بنفس الطريقة؟.

غضبت هذه المرة، أو هكذا بدت. تقدمت بخطوات قوية نحو الطاولة وجلست على نفس الكرسي، وقد صممت أن تقاوم. بدت أكثر اثارة، بوجهها الصلب ونظراتها القاسية. تصورت انها ستمانع، وأن الكلمات التي قلتها جرحتها. تمددت في السرير وقلت لها:

– أوافق أن تقرئي القصيدة الآن، لكن أية اثارة فيها، سأرد عليها بطريقة عملية!.

أخذت تدخن دون أن تهتم لما قلته. أمسكت بمجلة كانت على الطاولة الصغيرة، قرب السرير. وقذفتها بها. وضعتها بهدوء على الطاولة، دون أن تتبدل هيئتها. تحركت في الفراش لاشعرها انني انهض، لكن لم تتحرك.. صرخت بصبر نافد:

– ميرا.. اذا لم تأت فسوف أنام!.

ابتسمت دون اهتمام.. وبرقت في رأسها فكرة أن تتركني. أحسست بذلك من تغير ملامحها. كانت ملامح وجهها تتغير بسرعة. وكأنها تستعد لاتخاذ قرار. وفجأة رأيتها تجمع نفسها، تلتقط حقيبة يدها، وتقبل نحوي مثلما تفعل دائماً.. انحنت فوقي وقبلتني تلك القبلة السريعة وقالت قبل أن تتركني:

- لا تنس أن تضع ماء للزهور!.

خطت بتصميم نحو الباب. لما وجدته ما يزال مقفلاً، قالت بلهجة باردة محايدة:

- أعطني المفتاح!.

أعطيتها المفتاح دون كلمة. ادارته في القفل. ولما فتحت الباب وخرجت، قالت قبل أن تغلقه:

اتصل بي غداً.. قبل الثانية!.

كنت غاضباً عصبياً لما سمعت خطوات ميرا على الدرج، ثم لما ابتعدت. ندمت. ندمت كثيراً. كدت أنزل وراءها. كدت أفتح باب الشرفة وأنادي، لكن اختفت مشاعري، أو بالاحرى اضطربت. لم أعد أعرف ماذا يجب أن أفعل.

لم أتصل في اليوم التالي، ولم أتصل في اليوم الذي يليه. في اليوم الثالث اتصلت. كانت على الطرف الثاني من التلفون باردة غاضبة. واعتذرت انها لا تستطيع أن نلتقي ذلك اليوم، لأنها على موعد مع صديقتها!.

بدأت ميرا اذن! تريد أن تنتقم. تريد أن تعلمني درساً. ليكن! ليست ميرا المرأة الوحيدة في هذه المدينة الكبيرة.. في المدينة آلاف النساء، واذا ارتبطت معها خلال الفترة الماضية، فلأني كنت ضجراً. كنت أعرف أن لها

علاقة بزميل في نفس العمل. رأيتهما معاً أكثر من مرة.. حاولت ان أسلك بطريقة لا تثير متاعب من أي نوع، قلت في نفسي أول الامر: لاتركها، لا أحتمل. ولكن يجب أن أذلها قبل أن انهي علاقتي معها.

في وقت متأخر، همدت مشاعري. لم يعد الأمر يثيرني الى الدرجة التي احارب ميرا، أو أفتعل معها معركة. قلت لنفسي ادافع عن ميرا وابرر تصرفاتها: وأنت.. ألا تعرف باولا؟ لماذا تبرر لنفسك الكثير وتمنع عنها كل شيء؟ وماذا تكون ميرا بالنسبة لك؟ امرأة شقراء.. لها فم شهواني وجسم مثير.. انتما بحاجة الى بعض، دون كلمات كبيرة، ودون روابط كاثوليكية.. وأخيراً دون نتائج.. هكذا ارتضيت، وهكذا يجب أن تكون!.

بعد أن أغلقت ميرا سماعة التلفون، ذهبت الى باولا. كانت باولا صاخبة، تدخن، تضع ساقيها فوق كرسي لما دخلت الى نادي الكلية. لما رأتني صرخت. ركضت نحوي برعونة لذيذة، دون أن تهتم بنظرات الذين كانوا معها.

جلسنا في زاوية بعيدة، وقبل أن أغادر النادي اتفقنا على اللقاء في الخامسة!.

باولا امرأة عملية، لا تحب التعقيدات أبداً، تضحك، تدخن، تشرب، وفي الفراش امرأة تنزع اللذة من الرأس. كنت أريدها في أوقات معينة. وأتصور أن أية امرأة – لا تغني عنها.. أما اذا انتهينا.. فتبدو امرأة أخرى: تدندن باغنيات بذيئة، وهي تتجه الى الحمام عارية، دون أن تحس بأدنى مشاعر الخوف أو الخجل، تغتسل وباب الحمام مفتوح، تاركة لي أن أتملى من جسدها، وهي تستدير، وهي تمسح تحت ابطيها، بين ساقيها، لم يكن أي شيء يحرجها. تبتسم بطفولة، تقفز، تلبس احد ثيابي، ريثما يجف ثوبها الداخلي، وترجع الى الفراش بلذة، تطلب الدفء، وبحركاتها الخصبة اللامعة

تهيجني. استدير هارباً منها، ترتمي فوقي، تنزلق تحتي، حتى اذا عبقت الغرفة بتلك الرائحة المختلطة بالسجائر والكونياك، نمنا، أو بالأحرى تنام وحدها.. وأفكر (أنا كثير التفكير والحزن.. لا أعرف لماذا).

كنت أحب النظر الى وجه باولا وهي نائمة. أنفاسها منتظمة مطمئنة أغلب الوقت. وجهها مستسلم هانئ. عروق رقبتها تظهر وتختفي بنعومة لذيذة. صدرها العالي شامخ قوي كأنه زمن أبدي لا ينتهي. فاذا استيقظت على نظراتي، ضربتني على خدي، أو عضت ساعدي، كأني أخونها وأنا أنظر اليها: . هكذا.

هكذا كانت باولا بالنسبة لي.

بعد أن غضبت ميرا.. ظللنا.. باولا وأنا، أربعة أيام نلتقي كل ليلة. وفي الايام الاربعة تحولت الى حيوان مهترىء متعب لا أقوى على رفع يدي الى رأسي. نمت معها كثيراً. شربت وأكلت، لكن في لحظة نزقة قلت لباولا استفزها:

– نحن حقراء يا باولا. لسنا طلاباً. يجب أن نتحول الى حيوانات توضع في زرائب لتحسين النسل، أنت تستقبلين الذكور.. وأنا استقبل الاناث!

– وهل مللتني؟ هل تريدني أن أذهب؟

– لا أقصد هذا يا باولا.. لكن يجب أن نعود الى حياة طبيعية مثل باقي الناس!

– وماذا يجب أن نفعل؟

– ان نلتقي مرة كل أسبوع.. مرتين!

وانتظرت لأرى وقع كلماتي ، فلما رأيتها تقلب شفتيها دون اهتمام . قلت :

– أنت تعرفين أن واجباتي الدراسية تقتضي تخصيص كل وقتي للدراسة.. لكي انتهي في الوقت المناسب !.

وبعصبية شرسة قالت :

– وأنا التي أمنعك من الدراسة !.

– لم أقصد ذلك يا باولا.. لكن يجب أن ننظم أوقاتنا !.

كانت تلك آخر مرة تزورني فيها باولا . لم تر غرفتي بعد ذلك . التقينا عدّة مرات ، لكن في النادي ، في مقهى ، وأغلب الاحيان كانت تهز الكتب التي تحملها ، وتقول لي بلهجة ساخرة متحدية ، اذا طلبت منها أن نذهب تلك الليلة معاً :

– انتبه.. أنا طالبة . ولا أستطيع أن اضيع وقتي.. ثم ان دراستك لا تسمح لك أن تفكر بالنساء والسهر !

لم تكن تتوقف عند ذلك . كانت تتابع مثل معلمة تلقي درساً :

– غداً تكبر ، وتنتهي دراستك ، ثم تتزوج وتنجب أطفالاً.. أما الآن.. فيجب أن لا تضيع وقتك مع النساء . اذا فعلت فسوف تخسر الدراسة والنساء والأطفال !.

كنت أعرف باولا جيداً ، فلم أغضب من كلماتها ولم أضغط عليها.. وحتى لو فعلت ، فلن تتغير . فهذا النوع من النساء ، وما يتصف به من كبرياء أقرب الى العناد والتهور ، لا يمكن إلاّ أن يفعل ذلك .

اكتفيت بأن نلتقي في أماكن عامة بين فترة وأخرى ، وحتى وأنا أقبلها ، في زاوية ، أثناء عودتنا ، عندما أوصلها الى القسم الداخلي ، لم تكن تستجيب لضغط صدري ، لكلماتي ، ليدي وهي تشد على يدها بطريقة معينة ، كانت ضحكتها تفتنني ، ولكن لا تترك لي أن أفكر باستعادتها ، انها الماضي .. الماضي الذي انتهى . كانت تقول :

– انته من دراستك الآن .. وبعدها لدينا وقت طويل للمتعة !.

– وماذا عن هذه الفترة يا باولا ؟.

– الآن نكتفي بما يفعله العشاق الصغار : قبلة سريعة ، لمسات .. ألا يكفيك ذلك ؟.

– وماذا عن العذاب يا باولا ؟.

– أنا لا أحب العذاب .. غيري يحب ذلك !.

– وهل يمكننا أن نفعل شيئاً يا باولا .. لكي نتخلص من العذاب ؟.

– قلت لك .. بعد أن تنتهي من دراستك !.

ولم استطع أن أقتحم باولا . صمدت في وجهي . تحولت الى طفلة كبيرة كبيرة ، لدرجة أنها لم تعد تتصرف لتثيرني ، لتلهب حواسي . تركتني أبرد تدريجياً ، حتى جاء وقت أصبحت علاقتنا أقرب الى صداقة بائسة ، تثير في النفس حزناً على ماض لا يعود .

قلت لميرا . بعد أن انقضت فترة اسبوعين . لم أرها خلالها إلاّ لفترة قصيرة ، قلت لها وكنت أشرب كأساً من النبيذ تعودت أن تصنعه امها في القرية كل سنة ، قلت :

- عشرة أيام.. عشرة أيام لا أراك خلالها تتغيرين هكذا؟.

أنت الذي تغيرت.. والآن، أسأل نفسي.. في الليل والنهار، ماذا حصل؟ سألت نفسي كثيراً، وحتى الآن لم استطع أن أصل الى جواب. انا مستغربة كثيراً. وكأنك لم تعد تبالي، ولم تعد تريدني!.

- ميرا.. أنت مخطئة كثيراً.. ربما كنت متعباً. ومن ناحيتي لم يحصل شيء!.

- وهل حصل مني شيء؟ هل تغير فيَّ شيء؟.

لم نعد مثل قبل يا ميرا. ان شيئاً فينا. نحن الاثنين. قد تغير وربما أنت التي تغيرت كثيراً!.

- قل ما تشاء. أنا أعرف نفسي وأقول لك بصراحة اني لم أتغير.

- وماذا تغيَّر فيَّ.. قولي!.

- لا أعرف. ولكنك تلاحظ أن علاقتنا لم تعد مثل قبل!.

دخلت امها وهي تقول كلماتها الأخيرة. كانت امها مثل كل الامهات (ماتت أمي لما كان عمري ست سنوات.. ليتها لم تمت) وجه مطمئن أقرب الى الرضى. حركات بطيئة واثقة. ورغبة في أن يكون كل شيء وادعاً رقيقاً.

لما رأت كلمات ميرا غاضبة ووجهها محتقناً. وقفت حيرة. ثم اتجهت الى السرير تحاول أن تسوي الغطاء. لعلها تمتلك شرعية ما للكلمات التي تقولها.

ساد الصمت. ولم يكن يقطعه سوى ضربات الام وهي تعيد ترتيب الوسائد. ولما نظرت الينا من جديد ابتسمت بإشفاق. وسألت بطريقة لذيذة.

- هل أعجبك النبيذ؟ هل احضر لك كأساً آخر!

- أريد زجاجة. زجاجة لآخذها معي.

- احتفظت لك بواحدة كبيرة. ما رأيك الآن بكأس آخر؟

- إذا شربت معي.. أو شربت ميرا. أما وحدي فلا..

وبنفس التوتر اليائس. وعيناها الى يديها العصبيتين اللتين تتحركان دون معنى. قالت ميرا بحدة:

- لا أريد لا أستطيع أن أشرب.

قالت امها بوداعة الامهات اللواتي يردن ان يتحملن كل شيء. لكي يخففن عن الآخرين.

- سأشرب معك.. ولكن قل لي ماذا بينكما؟

ضحكت ببلاهة. لا أعرف ماذا أقول. هززت رأسي وأشرت الى ميرا. ظلت ميرا على صمتها. لم تتغير حركة يديها ولم ترفع عينيها. سألتها:

- قولي أنت يا ميرا.. ماذا حصل بينكما؟

- لا شيء ماما.. لا شيء!

في تلك اللحظة تأكدت أن عالمي ينهار. عالمي كله ينهار. في مرات سابقة كانت ميرا اذا بدر شيء يمكن أن يسبب كدراً تتحمل. كانت تنهض إلي تعانقني، لكي تؤكد لامها ان علاقتنا لا يمكن أن تبرد أو تتكدر. أما الآن فنحن الثلاثة نلاحظ أن كل شيء ينتهي. يتمزق. ميرا عديمة الاكتراث. وبعض اللحظات عصبية. لانها لا تستطيع أن تقول لي كل ما تريد دفعة

واحدة ، وامها حائرة ، ترقب نهاية ما ، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً .. وأنا ضائع متعب ، أريد ولا أريد في نفس اللحظة !.

ان الاحساس بالنهاية يشبه ريحاً داخلية ، تصفع الدم ، تغير مسيرته ، توقفه ثم تدفعه بقوة . وهذا الاحساس بمقدار ما يحسه الانسان . لا يمكن أن يفعل شيئاً لمنعه ، قلت لميرا ، وامها تجلس بيننا :

– يجب أن نعترف يا ميرا .. امك ليست غريبة . وتعرف علاقتنا !.

نظرت الي بتحد كأنها لا تخاف من شيء أو على شيء . أما الام فقد حملت كأسها بيد مرتجفة ونظرت الي بترقب أخرس . أما كلماتي فقد أضفت على الجو توتراً اضافياً .. والا لماذا اخترت هذه الكلمات الكبيرة ؟ هذه البداية الحادة ؟.

حملت كأسي ، رفعته الى مستوى نظري وقلت :

– في صحة أيام ماضية !.

نهضت ميرا مهتاجة . وقد أحست ان كل شيء بيننا ينتهي . قلبت شفتيها بازدراء شبيه بالطفلة ، نظرت الي . رأيت وجهها يتقلص . وعضلات رقبتها تنتفخ . ولما تأكدت انني رأيت ما أرادت أن تعبر عنه ، تركت الغرفة دون كلمة !.

ظللت مع الام .. كنا صامتين . شربنا كأسينا بحزن غامض . وقبل أن أترك البيت ، قالت لي الام :

– الغضب يفسد كل شيء .. وانا آسفة لانني أجبرتكما على أن تتكلما في جو غاضب ، وأضافت بلهجة حنونة فيها اعتذار : يجب أن لا تتغير ، تعال

دائماً ، وميرا عندما تهدأ سوف تبكي وتندم ، وينتهي الامر بأن تكونا أصدقاء أكثر من قبل.

لم ينته كل شيء بيننا. ظللنا أصدقاء بشكل ما. صحيح أن علاقتنا لم تعد كما كانت ، لكن ظلت هذه الجسور الخشبية الهشة ، التي تحمل الناس بعضهم لبعض ، بين وقت وآخر.. جاءت الى غرفتي مرات كثيرة ، وذهبت الى بيتهم مرات كثيرة. شربنا عدداً لا يحصى من كؤوس النبيذ ، ونمنا معاً.. ولكن ميرا أصبحت أقل رغبة في أن نتحدث عن الاشياء مثلما كنا نفعل من قبل ، بل وأصبحت حريصة على أن لا نكون وحيدين. بدأت تدعو صديقة أو اثنتين. وبدأت تقترح أن نذهب الى بيتها ، بدل أن نذهب الى غرفتي.. وأخذت تصرح بأفكار معينة ، يمكن أن تفهم دون عناء.. أما حديثها عن التعب ، ثم عن احتمال الزواج ، فقد تكرر كثيراً خلال هذه الفترة ، وأصبح حديثها عن ميلان بصوت عال. ولم تخف علاقتها عندما ذكرته أمام أمها..

مرة شربت الكأس الذي رفعته حتى النهاية وغمزت بعينها بطريقة متحدية. ولما انتهت قالت :

– أنت لا تعرف ميلان؟

* * *

وليليان... ليليان هل انتهت؟

ليليان هي التي دمرتني ، خضت دمائي ، عكرتها ، وأصبح كل شيء غير ممكن. باولا الوادعة المستجيبة ، تحولت بعد أربعة أيام الى قطة متوحشة. لم تعد الانثى المشرئبة. ولم تعد تراني رجلاً. كنت بنظرها طفلاً وعجوزاً. طفلاً أبله وعجوزاً متلاشياً فقد كل قدرةً على اكتشاف المرأة ، ومعرفة خصبها وعنفوانها. ولم أعد أستحق بنظرها أكثر من الشفقة!

أما ميرا .. فلم تستطع أن تتخذ قراراً سريعاً. بقيت ولم تبق. موجودة وغير موجودة في نفس الوقت. نلتقي، نتقابل. ولكن بدأت تفكر بشكل مختلف. لم تعد تتحدث عن مشاريع المستقبل. وانقطعت عن الحديث عن ديوان الشعر.. كيف يجب أن يطبع واللوحات التي يجب أن أرسمها.. لم تعد ميرا تفكر معي بصوت عال!.

* * *

ورادميلا!

أعجب امرأة رأيتها رادميلا. في المدينة تحولت الى امرأة اخرى. التقينا مرات كثيرة. لكن ايفان كان موجوداً دائماً. وفي وقت متأخر كان حريصاً على أن لا يكون، بعد أن أصبح واثقاً لدرجة الغرور. كان ايفان ينظر إلي بحزن. راثياً أفكاري وطموحاتي الكاذبة. أما هي فانتهت بالنسبة لها تلك الفترة. الجبل تلاشى.. بخضرته ونجومه. برقصه وخموره. بالشبق الملهوف. أصبح كل شيء من الماضي (تصوروا.. ان ذلك شيء عجيب) وهي الآن امرأة أنيقة. متزنة. لا تتكلم مع الرجال إلاّ عن ايفان، وترد التحية بتحفظ ان كانت وحيدة. ولا تترك لأحد أن يفكر بالاقتراب منها!.

قلت لها ذات مرة. ونحن نقف متجاورين في الباص المزدحم:

- لقد نسيت بسرعة يا رادميلا.. كنت أتصور أن علاقتنا في الجبل ابتدأت. ولن تنتهي. وكنت اتصور ان المدينة ملجأنا الوحيد.. ماذا حصل؟.

- يجب أن ننسى ذلك بسرعة!.

- من أجل ايفان؟.

- اذا أردت أن نبقى أصدقاء فيجب أن تحترم ايفان. ايفان أصبح كل عالمي.

– وانا.. ماذا أصبحت بالنسبة لك؟

– صديق..

واستدركت بسرعة:

– صديق لي ولايفان معاً!.

– ألا نلتقي وحدنا؟.

– أنت تعرف أن هذا مستحيل!.

– ألهذه الدرجة؟.

– بالتأكيد.. وفي الصيف القادم سوف نتزوج. وربما ذهبنا الى نفس المكان!.

– أنت قاسية يا رادميلا، لو لم تكوني قاسية لكنت شيئاً آخر.

وضغطت على صدرها مستغلاً انعطاف الباص، فابتعدت وقد احمر وجهها، وحرصت على أن تبقى بيننا مسافة لكي لا أعاود الى لمسها!.

أي شيء هو الانسان؟.

تحطم غروري أمام غرور ايفان. أمام ثقته.. تراجعت كثيراً، في الوقت الذي تقدم هو بخطوات متزنة هادئة.. والآن.. يفكر بالزواج! وأين..؟ في نفس المكان الذي كان يهرب منه، لكي لا يترك لي مجالاً وأقول كلمة لرادميلا!.

بعد أن توقف الباص.. نزلنا. قلت أحاول لآخر مرة:

– رادميلا.. متى أراك؟ أريدك وحيدة، وايفان سوف تقضين معه العمر كله!.

رأيت ضحكة عصبية ترتسم على شفتيها. كأنها تستنكر وتلتذ بهذه الكلمات. وتحلم بالعمر الذي ستقضيه مع ايفان.. ولم تجب. مدت لي يدها بتحفظ وقالت:

- ايفان ينتظرني الآن!.

كان ايفان هناك. كان في آخر المحطة ينتظر. نظر الينا وابتسم. خجلت كثيراً لما رأيته. تقدمت نحوه أريد أن أعتذر بشكل ما. أن أقول بضع كلمات. لكني وجدته يبادرني بطريقة أقرب الى التحدي. وبنفس النبرة التي استعملها عندما تحداني أول مرة. في الليلة العجيبة. قال:

- بالتأكيد خسرت الرهان.. اذا أحببت أن تراهن مرة اخرى. وعلى أي شيء. فأنا مستعد.

وضغط على يدي وهو يحييني بحرارة. أما رادميلا فقد وقفت بيننا بغرور. شاعرة بكبرياء الانثى المشتهاة والمستحيلة!.

أي شيء هذا الذي حصل؟.

لو تكلم الآباء المقدسون. لتكلموا بثقة يسوع المسيح نفسه. وقالوا: الخطيئة. نفسه تعوم في بحر الخطيئة. النساء. نساء الآخرين. الضلالات. التهتك. كل شيء. كل شيء فيه خاطئ. ولا يمكن أن يشفع له يسوع الناصري. كيف تريدون منا أن ننقذ نفساً فاجرة؟ كيف تريدون منا أن نتقبل اعترافات رجل انسخت روحه. ولا يمكن أن تتطهر حتى في جهنم؟.

ليقل الآباء أي شيء. انهم يملكون هذا الحق. وأنتم يمكن أن تقولوا ما تشاؤون. رغم انكم تسبحون مثلي في الخطيئة. أما الذين يغفرون فانهم

مباركون في السماء، ولا أعتقد أن أحداً منكم يريد أن يكون مباركاً. الفرق بيننا انني أعترف، بشكل ما لجهة ما، وانتم لا تعترفون.

تماديت ذات مرة.. انتابتني لعنة لأن أقول شيئاً.. ذهبت الى الكنيسة، حاولت أن أعترف، لكن دافعي (أقول ذلك لاول مرة) الى ذلك، كان خبيثاً مليئاً بالخطيئة.

ذات مرة وليليان تلاحقني بطيفها، في الليل والنهار، قررت أن أذهب الى الكنيسة.

كانت عواطفي لما ذهبت مضطربة وملعونة. اشتريت شمعة كبيرة. أشعلتها وتقدمت بخطوات هر. وضعتها عند المذبح، ثم اتجهت الى تلك الغرفة الصغيرة الواطئة، حيث قررت أن أعترف.

كان الحاجز بيننا. شعرت بأنفاسه الثقيلة تملأ المكان، ودون أن أراه بوضوح، بدا لي بديناً تشتعل الخطيئة في صدره مثل اشتعال نار الحاقدين في بيادر الفقراء. قلت له:

- اغفر لي يا أبانا. أنا رجل خاطئ، تعذبه الخطيئة ويريد أن يكفِّر ويتوب!.

سمعت صوته الثقيل الواثق وهو يقول:

- يسوع المخلص، ابن الاله، سيغفر لك خطاياك كلها.

قلت وأنا اكتم ضحكة صغيرة:

- ولكن خطاياي كثيرة لدرجة أن يسوع المخلص لن يغفرها!.

رد عليّ بلهجة قاسية:

– اعترف يا ولدي . ويسوع سيغفر كل شيء !.

– أحببت امرأة متزوجة . وما أزال أحبها . ولا أقوى على أن أكف عن حبها لحظة واحدة . فماذا أفعل ؟.

قال وقد اضطرب صوته فأصبح مضحكاً :

– منذ متى وأنت تحبها ؟.

– منذ أن ولدت .

– أمتزوجة هي ؟.

– نعم .. نعم يا أبانا !.

وبلهجة عصبية قال :

– ولكن لماذا يا ولدي ؟ ألم تسمع ما قاله يسوع المخلص وهو ينهى عن اشتهاء نساء الغير ؟.

– ولكن لم اشتهها يا أبانا . ولم أفكر بأي شيء ملوث .

– والحب ؟.

– أحب بطهارة . وأريد أن أبقى طاهراً .

– لا يمكن يا ولدي . ان النظر الى نساء الغير خطيئة ، فما بالك بالحب ؟.

– ولكني لا استطيع ، أيها الاب المقدس . ويسوع المسيح يفهم معنى عذاب الانسان .

– وماذا يستطيع يسوع المخلص أن يفعل لرجل لا يريد أن يترك الخطيئة ؟.

– وأية خطيئة في أن أحب هذه المرأة، أيها الأب المقدس؟.

– الخطيئة هي الخطيئة. ومجرد أن تفكر بامرأة اخرى، بامرأة متزوجة، فقد وقعت في الخطيئة. ويجب أن تفعل كل ما تستطيع من أجل أن تنقذ روحك.

رددت عليه وأنا أمد نهاية الكلمات لأثيره:

– وماذا عليَّ أن أفعل، أيها الاب العظيم القداسة؟

قال بنفاد صبر وبصوت يائس وغاضب:

– كف عن حب هذه المرأة.

وبنفس النبرة الباردة الخالية من الاحترام. قلت:

– واذا لم أفعل؟

– سوف تبقى غارقاً في الخطيئة. وسوف تنال جزاء خطيئتك من الرب ومن ضميرك.

– ولكني لم أخطئ ايها الاب المقدس.

– انت مخطئ يا ولدي. وقد لا تدرك خطيئتك!.

– أقول لك اني لم اخطئ، ولا أريد أن اكف عن حبها.

– اذن فان روحك وقعت في الخطيئة المميتة. وليس عندي ما أفعله من أجلك.

صرخت أريد أن اضغط عليه ليفعل شيئاً:

– يجب أن تفعل شيئاً أيها الأب المقدس.. بالتأكيد يجب أن تفعل!.

– أنت الذي يجب أن يفعل.. كف عن حب هذه المرأة.

– ولكني لا استطيع. وجئت لكي تبارك حبي!.

– أعط قلبك ليسوع المسيح وسوف يخلصك.

– اتبارك حبي؟.

– ينقذ روحك.

– بالحب؟.

– بأن تترك هذه المرأة.

– ولكني لا أريد أيها الأب المقدس.

– اذن ابواب السماء مغلقة في وجهك. ويسوع لن ينقذ روحك.

– لا أريد السماء ولا أريد يسوع المسيح!.

– أنت تجدّف يا ولدي. ولا يليق بمثلك أن يتكلم هكذا.

– وأنت ماذا تعرف عن الحب أيها الاب المقدس؟ وماذا تستطيع أن تمنح البشر لكي لا يتعذبوا؟.

– أنت غاضب يا ولدي وقلبك مليء بالخطايا.

– لست غاضباً. ولكني جئت من أجل أن تبارك لي الحب.

– لا أبارك الخطيئة.

– أي شيء تبارك اذن؟.

– ابارك الروح النقية. روح الانسان وهو يعانق يسوع المسيح، لكي تتطهر روحه وتتخلص من الخطايا.

– قلت لك أنا لم أعرف الخطيئة في حب هذه المرأة .

– أنت مخطئ ويجب أن تتوب .

- لست مخطئاً ولن أتوب !.

– اذهب يا ولدي . وبعد أن تتعذب روحك وتغرق في العذاب ، سوف تجد ابواب السماء مغلقة ، ولن ينقذك أحد .

– اسمع ايها الاب المقدس .. اما أن تبارك حبي لهذه المرأة أو كفرت بالكنيسة ويسوع المسيح .

– أنت كافر وخاطئ .

– أنا أكثر من يسوع المخلص عذاباً أيها الأب ، أموت كل يوم . اصلب كل ساعة . أتعذب ، أتألم . قل لي ماذا أفعل ؟ وماذا يمكن أن تفعله الكنيسة من أجلي .

– اذهب ، فالكنيسة لا تستقبل من يرون في الخطيئة ميزة يفاخرون بها .

– سأذهب أيها الأب ، لكن لن أغفر لكم .. انتم أيها الآباء لا تعرفون القداسة ، لا تعرفون يسوع المسيح ، لا تعرفون سوى بطونكم ، وتغرقون في الخطايا حتى رؤوسكم ..

لو كنت مسيحاً لصلبت كل الآباء ، لاغرقتهم . وسوف يأتي يوم أفعل ذلك ، سأفعله بكل تأكيد !.

كنت ساخراً في كل ما قلته للأب المقدس . كنت أعرف ان روحي لا تعرف الخطيئة (وحتى الآن لا تعرف الخطيئة أبداً) أما أن تكون لي علاقات مع النساء ، فليس للكنيسة علاقة بذلك . النساء وحدهن ارتضين هذه

العلاقات.. وارتضيناها، وليس للكنيسة أن تتدخل بين الرجال والنساء الذين يحبون بعضهم ويناومون مع بعض!

تطلعت الى المذبح لما خرجت. كانت العذراء ما تزال تحمل الطفل الصغير وتنظر ببؤس. أما الشموع فكانت تتلوى في الهواء البارد.. تتموج مع رائحة البخور وصور الآباء المقدسين، وكان الرجال المسنون والعجائز.. وبعض الفتيات الصغيرات.. الاحياء الوحيدين الموجودين!

* * *

ليليان والمدينة هما اللذان جعلاني أتصرف هكذا تجاه النساء وتجاه الكنيسة.

بعد أن رجعت الى المدينة بدأت أتصرف بطريقة جديدة:

أصبحت ليليان أكثر من حقيقة بالنسبة لي. ليليان العيون المليئة بالغفران والبهجة والعذاب والندم.

منذ ساعات الصباح الأولى، تبدأ الأغنية التي لا تنتهي: ليليان.. أين ليليان.

سألت رادميلا ذات مرة، وكان ايفان يستمع ويهز رأسه:

– رادميلا، أتذكرين امرأة جميلة ولها طفلان، كانت معنا في الجبل؟

– جميلة ولها طفلان؟

– جملية ولها طفلان!

– وغير الجمال والاطفال؟

– عينان خضراوان ، أنف صغير ، يوناني ، جبهة ليست عريضة وليست ضيقة ، أقرب الى النعومة ، لم تكن قصيرة ، ولكن لا تشبه النساء الطويلات الاذرع أو السيقان المتورمة !.

– أتريد أن تشتم أحداً أم تريد أن تشترك في مسابقة الكلمات المتقاطعة ؟.

– لا اسخر يا رادميلا ، ولكن لا أعرف كيف اصفها لك.

– كيف كان شكلها العام ؟ أين كانت تجلس ؟ وملابسها هل تتذكر ملابسها ؟.

– قلت لك لم تر عيني أجمل منها !.

– لم تكن معنا امرأة خارقة الجمال !.

– خارقة الروعة ، ليس أجمل منها على وجه الكرة الارضية كلها.

قال ايفان بسخرية :

– وما قصة هذه المرأة الخارقة الجمال ؟.

– وأنت يا ايفان لا بد وأن تكون قد رأيتها واعجبت بها.

– تكفيني رادميلا ، لم أر غيرها ، ولا أريد أن أرى أجمل منها.

عادت رادميلا تسألني ، وقد أحست أن كلماتي لم تكن عابثة ، قالت :

– أتذكر أغلب النساء اللواتي كن معنا في الجبل ، ولو حاولت أن تصفها لي فسوف أتذكرها حتماً !.

– زوجها سمين ، أقرب إلى الطول ، كانوا في الغالب يجلسون على الطاولة الثالثة ، قريباً من الشرفة ... أتتذكّرينها ؟

– ماذا تلبس قل لي بحق السماء؟

– طبيعي تلبس ثياباً مثل باقي النساء. ورأيتها مرة تلبس مايوهاً أصفر!

– ألا تتذكر ألوان الفساتين؟ الأحذية؟ الحقائب؟

– أتذكر المرأة نفسها. ولا أتذكر شيئاً آخر.

– وكيف تريدني أن أعرفها؟

– لأنها شديدة الروعة. ولا يمكن لأحد أن ينساها!

التفتت رادميلا لايفان تسأله بطريقة مغرية:

– وهل رأيتها يا حبيبي؟ هل تتذكر هذه المرأة؟

– هلوسة. أحلام. كيف أتذكر وأنا لم أرَ غيرك طوال عشرة أيام؟ ولكن لو كانت جميلة إلى الدرجة التي يتحدّث عنها لرأيتها حتماً!

وفجأة سألني إيفان بالطريقة التي لم يغيرها:

– وماذا عن هذه المرأة؟

– ابحث عنها!

– وماذا تريد منها؟

– إذا استعملت الكلمة الخطيرة. فقد اخطئ. لكن ببساطة.. استهوتني!

– أحببتها إذن، وتريد الآن أن تدمر حياتها؟

– إيفان.. بحق السماء اترك السخرية. أنت تحتقر العواطف، لا تعترف بها، خاصة إذا كانت عواطف إنسان غيرك، أما لو كانت عواطفك أنت.

جنونك برادميلا، فأية سخرية، أي حديث عن الأمر.. يزعجك.. لا تدعني أقول كل شيء!

– وماذا تريد أن تقول؟

– لا شيء.. لا شيء، أخطأت وسألت رادميلا!

– وهل عرفت اسمها؟ هل تحدثت معها؟ وأي شيء بينكما؟

سألتني رادميلا بتعاطف وحنان لم ألمسهما منها طوال فترة الشهور التي انقضت مذ كنا في الجبل وحتى الآن.

قلت لكي انهي الحديث عن الموضوع:

– في الحقيقة أردت أن أمتحن ذاكرتكما، لا شيء أبداً. لا حبّ ولا بحث، كل ما في الأمر، أردت أن أختبر إلى أي حدّ يمكن أن يتذكّر الانسان.. وهل الشيء نفسه يمكن أن يترك في الذاكرة نفس الأثر!

لم تصدق رادميلا. أما إيفان فقد انشغل مع صديق، عندما أمال بكرسيه إلى الوراء وأخذ يتحدث معه.

ومنذ ذلك الوقت لم أتحدّث عن ليليان مع أحد!

قبل ذلك الوقت، بعد ذلك الوقت، كنت أفكّر كثيراً بليليان. بحثت عنها. حلمت ونحن نسير معاً.. ونحن نسبح معاً.. ثم حلمت ونحن نتيه في البحيرة، وعلى الجبل، وحلمت أيضاً اننا معاً في أماكن مظلمة.. وتحت المطر، وحلمت اننا في قبو دافئ يقدّم النبيذ والأسماك الصغيرة، وكانت ليليان تضع رأسها على كتفي وتضحك.. ورأيتها مرة تبكي، وتعانقني وأحسّ عظامي تتمزق... وأصبحت لا أحتمل أن تمر ليلة واحدة دون أن أراها.

أما الذهاب إلى الكنيسة فكان آخر سخرية يمكن أن يفكّر بها إنسان !

في المدينة الكبيرة ، حيث يولد مئات الأطفال كل يوم ، و يموت مئات الناس كل يوم ، في المدينة الكبيرة ، الناس الكثيرون ، يركضون ، يضحكون ، يجلسون في المقاهي والمطاعم والبارات ، يتكلمون بحزن ، بفرح ، يذهبون إلى جميع الأماكن ، يفكّرون ، يحلمون ، يحبون ويتزوجون .. وحالات الانتحار والجنون كثيرة في المدينة الكبيرة .

منذ أن وطأت قدمي المدينة وليليان شبح يسيطر عليّ . وما دامت في الجبل أبعد ما تكون عن أن يلمسها إنسان ، أن ينظر إلى عينيها باطمئنان ، فالمدينة الكبيرة ستر لكل شيء ، وسحابة تغطي المخطئين والمهانين ، و يمكن أن يدفعهم ضجرها لأن ينسوا أنفسهم في قدح أو قبلة ، في لمسة يد .. وهذا ما فكّرت فيه ، وهذا ما حاولته في المدينة اللعينة .

كبرت آمالي وأنا أضع قدمي على رصيف المحطة . كانت الزهور الحمراء التي تحملها ميرا أول بشرى . وكانت أنفاسها في الغرفة ابتسامة عذبة في حلمي الجديد . أما المعارك البائسة الصامتة التي وقعت بين ميرا وبيني أولاً ، ثم مع باولا ، فقد كانت أسبابها تتمطى في دماغي مثل حيوانات سجينة . لم أحزن كثيراً عندما ذهبت باولا ، وميرا وهي تذهب وتعود كانت مثل مسافر لا يتوقف طويلاً في هذه المحطة التائهة .

أين يمكن أن تكون ليليان ؟

عليّ أن أبحلق في الوجوه ، لا بدّ أن أراها لن يطول بحثي .. وهنا ، إذا التقينا ، فلن نشعر بالخوف ، ان المدن الكبيرة تحمي سكانها ، تدافع عنهم بطريقة فذة . أما في الجبل ، حيث يكون الانسان وحيداً أو معزولاً ،

فلا يستطيع أن يفعل شيئاً ، سوى أن يغلف خوفه بهذا الصمت البائس ، والنظرات الاسيانة التائبة في عيني الزوج ، المليئة بالنداء في عيني الزوجة !

بدأت أجلس في المقاهي . لم ألزم نفسي بالجلوس في مقهى معيَّن . فالمقهى التالي مقهاها ، ولا بدّ أن تأتي . وإذا لم تجلس في المقهى فسوف تذهب إلى السينما . وحتى لو جئنا في وقتين مختلفين ، فالأفضل أن أبقى فترة من الزمن ، لكي أرقب الخارجين والداخلين ، لعلها تكون بينهم ... ليليان تحب الأفلام .. هذا ما أتصوره . لست مخطئاً ، وإذا ذهبت إلى سينما وذهبت إلى غيرها ، ألا تتنزه مع الأطفال في حديقة ؟ ألا تنظر إلى التماثيل في الشوارع ؟

بدأت رحلتي الجديدة في المدينة . لم تعد تستهويني النساء إلاّ بمقدار ما تشبه الواحدة منهن ليليان . وهذا الشبه كنت أريد أن أقترب من خلاله لليليان .. أتطلّع إلى الوجوه حتى إذا تأكدت واصلت طريقي دون أن أترك ورائي ما يشي برغبتي !

هذا الشارع الذي أمرّ عليه الآن ، مرّت فوقه ليليان آلاف المرات . لكن متى أيها الاله (أصبحت اردد اسم الاله كثيراً .. لكن دون وعي) وهذا التمثال الذي وضع مجدداً في الساحة الكبيرة لا بدّ أن تكون ليليان قد رأته .. لكن متى كان ذلك أيها الاله ؟ ودور السينما ، أي دار ؟ هل يصدق أحد أن ليليان لم تأت إليها ؟ والحدائق .. والمقاهي .. وكل الأماكن التي تتسع لآلاف البشر ، لا أصدّق لحظة واحدة أن ليليان لم تأتها ! أتت إذن . توقفت . جلست .. لكن متى أيها الاله ؟ أريد أن أعرف متى جاءت . هل كانت وحيدة ؟ مع صديقة ؟ مع زوجها ؟

والباصات والترامات .. لِمَ وجدت ؟ لمن وجدت ؟ وليليان أي خط هو خطها ؟ العاشر ؟ السابع والعشرون ، التاسع ؟ من يدلّني ؟

في الجبل كنت أحس أنفاسها العطرة، نظراتها التي تخترق الزجاج، مشيتها.. أما هنا فأريد أن أكتشف طريقة أستطيع بها أن أصل إليها!

كنت أتصفّح الجريدة كل يوم. وأعرف أن الجريدة نفسها تمرّ تحت عيني ليليان. رأيت أعداداً من نفس الجريدة مع زوجها. وإذا كانت تقرأها كل يوم. فماذا تقرأ؟ السياسة؟ أخبار العالم؟ أخبار الفن والطلاق والانتحارات؟ من يرشدني لطريقة أستطيع أن أصل إلى ليليان؟

والتلفزيون.. تصوروا، في نفس المدينة، نشاهد التلفزيون. نقرأ نفس الجريدة، وكثيراً ما نشاهد نفس الفيلم.. أماالشوارع الرئيسية فلا بدّ أن تمرّ فيها ليليان، إذا لم يكن كل يوم، فمرة كل يومين، وأنا أفعل نفس الشيء.. أقل منها، أكثر.. لكننا نمر.

وشيئاً فشيئاً بدأت المدينة تصبح لي عدواً. تبددت الأحلام.. أما الخيمة الكبيرة التي تصورت أن المدينة تقيمها فوقها لكي تظل الناس، فأصبحت عراء شاحباً. الشوارع المزدحمة في كل وقت فارغة. دور السينما التي تستقبل البشر وتودعهم مرات في اليوم الواحد، لم تعد أكثر من صالات باردة تتلاعب فيها الرياح والأشباح. والمقاهي والجرائد والتلفزيون.. وأي شيء آخر في المدينة فقد معناه!

هل انتهت ليليان إلى الأبد؟ ألا يمكن للمدينة أن تتحول إلى كائن رحيم مرة واحدة وتدفع ليليان إلى شارع، إلى حديقة، إلى مقهى؟

أيتها المدينة أنت تلدين البشر ثم تقتلينهم. تخلقين الحب حتى إذا تكوّن وكبر وأصبح جحيماً تخنقينه، تمزقينه دون رحمة. أنت.. أيتها المدينة، تعزفين الموسيقى، تطبعين الكتب، حتى إذا تشبّع الانسان بحضارتك، وأراد أن يفعل

مثلما تقول الكتب أو مثلما يرى على الشاشة سخرت ! هزأت بهذه المخلوقات التي تشتهي أن تردد وراءك بعض الأمور التي علمتها !

ذات يوم .. عند الغروب ، وقف الترام في إحدى المحطات ، وفي مثل لمح البصر حمل الترام البشر وأغلق بابه وكاد يسير. في تلك اللحظة الخاطفة رأيت ليليان .. ركضت ، كادت سيارة عابرة أن تدوسني .. لكن كل شيء تبدَّد بسرعة وابتعد. هل رأت ليليان يدي تلوح لها؟ هل رأت السيارة المسرعة وهي تنحرف يميناً لكي لا تجرفني في طريقها؟

ذهبت بسرعة إلى المحطة التالية. كانت خاوية ما عدا امرأة سكرى تفتح عينيها بصعوبة ، وقد سال على وجهها اللعاب .. لم يكن غيرها .. وليليان المقدسة؟ واللهفة؟ آه لشدّ ما تمنيت في تلك اللحظة لو ان الأرض تمتصني ، تحولني إلى ذرات صغيرة ضائعة في الهواء.

لماذا انتهى كل شيء؟

لكن في لحظة الحزن الأقصى ، لحظة العذاب الهاجمة كالطوفان ، برقت من جديد عينا ليليان .. وعرفت بداية الطريق. وأي طريق هذا الذي عرفته؟ ترامها؟ ولكن من نفس المحطة التي رأيت ليليان كانت تمر ثلاثة خطوط للترام : السابع ، العاشر ، الحادي عشر .. أي خط هو خطها أيها الاله؟ لا يهم ، يمكن أن أكتشف. ان انتظاراً في المحطة الرئيسية يكفي لأن ألتقط ليليان .. لم يعد الأمر صعبا !

انتظرت ساعات طويلة. في كل ساعات النهار انتظرت. الترام يأتي ويذهب. السابع ، العاشر ، الحادي عشر. آلاف الناس وصلوا. آلاف الناس ركبوا وابتعدوا ، وليليان لا تأتي. هل يمكن أن تنزل في المحطة قبل الأخيرة؟ في المحطة التي قبلها؟ ألم تكن ذاهبة في تلك المرة لزيارة أمها؟ صديقتها؟ عمتها؟

أجنّ وأنتظر. أصبح كل ترام عدواً، وأصبحت كل الوجوه بالنسبة لي ثقيلة هازئة!

ماذا أفعل؟

ظل خط الترام المحراث الأساسي الذي يشق عظامي. أينما ذهبت أجعل بداية الطريق أو نهايته خط الترام. لم يكن الأمر هكذا فقط، تعمدت أن أركب من كل المحطات، لعلها تكون هناك، في تلك البقعة من الأرض، لعلها تذهب في هذه اللحظة للشراء، لعلها تذهب مع الأطفال إلى حديقة.

ومن جديد عدت أبحث في المقاهي، على أبواب السينما، في الحدائق.. ووجه ليليان يتخايل أمامي ويهرب مني.

وذات يوم.. واغفروا للقدر الساخر، إن كنتم تملكون المغفرة، كنت أركب الباص، وفي المحطة الموازية لمحطة الترام. توقّف الترام، وكانت ليليان على الناحية الثانية، تنظر بهدوء حزين إلى الشارع. رأيتها قبل أن تراني، رفعت رأسها وكأنها أحسّت بشيء.. لما رفعت وجهها ورأتني، شحبت، ارتبكت، كادت أن تصرخ. ولكنها لم تفعل أكثر من أن تلوّح بيدها.. لوّحت بطريقة قاتلة.

هل تصدّقون اني كدت أجنّ والباص يتحرّك؟ تركت مكاني بسرعة، لكن كان عليّ أن أنتظر المحطة الثانية.. لما نزلت كانت الريح تعصف والترام لا أثر له.. وكل شيء.. كل شيء قد انتهى تماماً!

هل أركض وراءها؟ هل أقف حتى تعود؟ وأين ذهبت يا رب السماء؟ أريد ذرة من هواء، من أمل، لكي لا أموت.

أهكذا دائماً يمرّ ترامها فلا تراني ؟ وإذا رأتني يكون بيننا الشارع عريضاً موحشاً ، ثم تتحرك الآلة القاسية ، لترمي كلاًّ في جهة ، وفي طريق ، ولا تترك فرصة ، ثانية ، لأن تقال كلمة ، كلمة واحدة !

انتظرت الترام التالي . ركبت وأخذت أحرّك ساقي مثلما يحركهما فارس ، أريد من الترام أن يقطع الأرض ، أن يحرقها ليصل بسرعة .. في كل محطة نمر فيها كنت أتطلع ، أنظر إلى الوجوه كمتسوّل .. وفي المحطة النهائية كان ثلاثة رجال وطفل .. ولا أحد غيرهم . وأي ترام هذا ؟ تصوروا كان الرقم رقم ٥ .

والترام رقم ٥ ، أين بدايته ؟ أين نهايته ؟ وليليان هل تسكن في مكان ما على هذا الخط ؟ ذرعت السكة كلها ، ذرعتها ماشياً ، أتطلّع إلى نوافذ البيوت ، إلى الحدائق ، وقفت طويلاً أمام تمثال أريد أن أستنطقه لعله الوحيد الذي يقول شيئاً .. أو يقودني إليها !

وليليان لا تخرج ، لا تخرج كثيراً ، وإلاّ لرأيتها . ليليان لا تجلس في المقاهي . ولا ترتاد السينما ، لو فعلت لرأيتها . وحتى حاجات البيت لا تشتريها وحدها ، قد يساعدها في الشراء ، وقد تشتري لفترات طويلة ، لو كانت تفعل لظهرت ، لرأيتها !

لا أدري لماذا فكّرت بالمسرح . خطرت لي الفكرة كأنها المعجزة ، كأنها خيط من الضياء المتوهج ، وتصورت اني أراها تقف أمامي في الصالة الخارجية للمسرح ، ندخّن معاً ونتطلّع إلى الوجوه دون كلمات . لم أكن أريد للكلمات أن تفسد متعتي لحظة واحدة ، يكفي أن أتطلّع إليها ، أن أنظر إلى هاتين العينين المشتعلتين ، يكفي أن أراها مرة واحدة ، ولا أريد شيئاً بعد ذلك .

في الثامنة كنت قد اشتريت تذكرة للمسرح ، ووقفت في زاوية ، قريباً من الباب الرئيسي ، مثلما يفعل الكثيرون ، أنتظر . الثامنة تمرّ ، تمرّ الثامنة

مشحونة بالعذاب والانتظار. الثامنة. ودقيقة. الثامنة ودقيقتان، والثامنة وعشر دقائق.. وعندما تجاوزت الثامنة والنصف، موعد رفع الستارة، لم تأت. ربما تأخّرت قليلاً، يمكن أن أنتظر. جاء الجميع، وهي وحدها لم تأت. ما الذي أخّرها؟ هل مرضت؟ هل تأخّر زوجها وأفسد هذه الأمسية التي استعدّت لها طوال بعد الظهر؟

كل الذين انتظروا دخلوا. كان الذين ينتظرون رجالاً. أغلبهم رجال. لكن لمحت بعض النساء، وجاء الرجال والنساء ودخل الجميع.. وليليان لا تأتي. لم يبق غيري. يمكن أن أنتظر أيضاً، المواصلات، الأشياء الصغيرة غير المتوقّعة، الأطفال... هل مرض أحد الأطفال ومنعها من المجيء؟

عندما بلغت الساعة الثامنة وخمساً وأربعين دقيقة دخلت. انتظرت في الصالة الخارجية حتى نهاية الفصل الأول. وانتهت المسرحية بفصولها الثلاثة دون أن أستطيع متابعتها. وغفرت لليليان. ان شيئاً ما أخّرها.. وإلاّ لجاءت.

بعد اسبوع تعمّدت أن أذهب إلى المسرح مرة اخرى. تعمّدت أن يكون يوم سبت. ان كثيراً من الناس يجعلون ذهابهم إلى المسرح مناسبة لأن ينتهوا من أسبوع حافل بالتعب والانتظار، ولا بدّ أن تكون ليليان قد تعبت كثيراً طوال الأسبوع: الأولاد، الزوج، البيت، الأشياء الصغيرة لا تحصى.. كل شيء يتعب المرأة.. والسبت يوم سقوط التعب.. يوم الرب والعشاق!

اشتريت تذكرة من السوق السوداء. لم أتطلّع إلى لوحة الاعلانات لكي أعرف اسم المسرحية وأسماء الممثلين، فما دامت ليليان ستأتي فالمسرحية جيدة، لا يمكن أن تأتي لمسرحية عادية.. سيكون كل شيء رائعاً، ليليان وسط القاعة تشع في الظلام والصمت، والناس مأخوذون بهذا الشعاع الذي يفيض عليهم، فيرون كل شيء أكثر جمالاً ولذّة.

انتظرت في نفس المكان ، وفجأة .. انفجرت أمامي . رأيت طيف ليليان من بعيد . أحسست أن كل عرق فيَّ ينتفض ، يتمزق . ارتجفت السيجارة في يدي . شعرت بخفقات قلبي تتسارع وتضطرب ، وأصابني ما يشبه الدوار . لقد كنت حكيماً لدرجة الجنون عندما تصورت أن ليليان ستأتي إلى المسرح . وانني في المسرح سأجدها ، وتأكدت من حكمتي عندما قرّرت أنها ستأتي ليلة السبت .. وها هي تأتي .

وسط الظلمة الخفيفة ، من نهاية الرصيف ، حتى نهاية حديقة المسرح ، كنت أتابع موكبها يتقدّم بجلال مواكب الملوك . خطوات مدروسة ، متقنة المعطف الأسود ، الفستان الذي لم يتضح لي لونه بعد ، كنت أرى من خلال فتحة المعطف شيئاً يبرق ثم إلى جانبها رجلان ، وبدا لي الرجل الذي يسير قليلاً إلى الوراء زوجها .

« تقدمي أيتها المعبودة . تقدمي ودوسي فوق عظامي . إن اللحظة التي تطأني قدمك هي لحظة ولادتي ، لحظة عناقي مع العالم والطبيعة وكل الأسرار المقدسة في هذا الكون . لا ترددي وأنتِ تدوسين ، إن عظامي تحتاج لقدمك المقدسة لكي تتطهر ، لكي تقوى وتكون أكثر عنفواناً وقوة . تقدمي وإذا لم تشأي أن تدوسي ، فأبتهل إليك ، بكل لغات الأرض ، أن تنظري إلي . لا أريد أكثر من نظرة .. نظرة صغيرة ، وحتى لو لم تنظري ، يكفي أن تمري ، ان عطرك وهو ينسحب بقربي جديلة من الضياء سوف تذكرني بأعظم ساعات الظفر والفرح » .

موكبها الصغير يقترب . لا أعرف كيف أنظر إليها . لا أجرؤ أن أفكّر باستحقاقي لمثل هذه المتعة المذهلة .

لما أصبحت قريبة ، لمّا أصبح بيننا مسافة ثلاثة أمتار . وأنا أرفع نظري لآخر مرة ، لكي أتشرّب هذه الثواني المليئة بالفرح والخوف ، رأيت في وجهها امرأة اخرى !

رميت السيجارة بعصبية ودستها بقدمي.. وماج في داخلي صراخ : ليليان.. ألا تكفّي عن عذابي ؟ ألا تعرفين معنى الانتظار والانسحاق الذي يحسّه انتظار من لا يأتي ؟ هل حاولت أن تنتظري مرة واحدة بلهفة مجنونة ؟ لماذا يا ليليان ؟ وهل أصبحت امرأة مثل باقي النساء ؟ وهل تظنين أن طريقة مثل هذه يمكن أن تخلق حباً أكثر جنوناً من حبي لك ؟

لمّا بلغت الثامنة والنصف لم تأتِ. انتظرت خمس دقائق ، ثم مزقت البطاقة بحقد وأنا أشتم كل شيء في هذه الدنيا !

ألا تحب ليليان المسرح الجاد ؟ هل يمكن أن تذهب إلى المسرح الهزلي ؟ ولكنهم هناك يتكلمون ببذاءة . لا يتكلمون ببذاءة فقط بل ان حركاتهم أغلب الأحيان بذيئة مليئة بالاثارة الرخيصة . لا يمكن لليليان أن تذهب إلى هناك.

ماذا بقي عليّ أن أفعل ؟

عندما ذهبت إلى بيت ميرا صرخت أمها في وجهي بعتاب قاس :

– لا يمكن أن تترك نفسك تموت هكذا ! أنت شاحب وشفتاك زرقاوان !

لم أكن أشعر بأني مريض ، حتى عندما وضعت أم ميرا يدها فوق جبيني تجسه إن كان ساخناً أم لا ، لم تلحظ حرارة ، لكن استغرابها لم ينته . سألتني إن كنت جائعاً أو مريضاً ، فلما رددت عليها بالنفي ، قالت بإصرار الأمهات إياه :

– يجب أن ترى الطبيب . ان حالتك لا تروقني أبداً.

لم تكن ميرا في البيت . كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف . لكنها ليلة السبت . يمكن أن أغفر لميرا ، كما غفرت لليليان ، وحتى لو لم أغفر لها ، ماذا أستطيع أن أفعل؟ يجب أن أتعوّد على كل شيء ، ويجب أكثر من ذلك أن أستعدّ للأيام العصيبة التي ستأتي .

وأنا أمضغ فطيرة من اللحم مع رشفات صغيرة من كأس النبيذ ، سألتني أم ميرا :

–لماذا لم نعد نراك مثل قبل؟ هل بينك وبين ميرا شيء؟

– لم يحصل شيء أبداً.. لكن الدراسة . وأنت تعرفين أنه إذا لم أنته الآن فيجب أن أنتظر حتى بداية العام القادم.. ولا أريد أن أنتظر!

– وميرا ألم تكن معك؟

– لا.. وهل قالت انها معي؟

– لم تقل ولم أسألها . لكن ظننتكما معاً.

– كنت في غرفتي ، وقد استغرقتني الدراسة فلم أفطن أن اليوم سبت إلاّ متأخراً.. وها قد جئت الآن!

– لن تتأخر.. ستأتي .

في الحادية عشرة غادرت بيت ميرا . ولم تكن ميرا قد أتت . مشيت المسافة بين بيتها وغرفتي . كانت المسافة طويلة . ولم أكن أفكر أن أقطعها وحيداً أو ماشياً لو لم أكن أمتلك هذا المقدار كله من الحزن واليأس.

في الطريق فكّرت بالمدن الكبرى والحب وليليان . حسدت إيفان ورادميلا ، وشعرت أن حياتي لم تعد سوية . ويجب أن تتغيّر.. وقررت في تلك الليلة وأنا أتحصّن من البرد أشياء كثيرة .

إذا لم تدقّ ليليان بابي فسوف لن أذهب إلى أي مكان لأبحث عنها ! لن أغادر غرفتي إلاّ في أقصى حالات الضرورة . لن أقف بعد اليوم أمام محطة الترام كمتسول . وإذا ذهبت إلى المسرح فسوف لن أكون وحيداً . وفي المقاهي والسينما ، وفي أي مكان ، لن أنظر بعيون بلهاء في وجوه البشر ، خاصة وجوه النساء ، لأفتش عن امرأة ماتت بالنسبة إلي .

قرّرت نهائياً أن أتوقف عن البحث . قلت في نفسي : إذا رأيتها بالصدفة في مكان ما ، فسوف أحييها بحرارة ، لكن دون أن أبدو رخيصاً أو متلهفاً . وإذا التقينا فسوف نتحدّث كأي مخلوقين التقيا ذات مرة ، في مكان ، ثم افترقا ، وذكرى ذلك اللقاء عزيزة بالنسبة لهما ، ولا شيء أكثر من ذلك . أما إذا رأيتها وزوجها فسوف أكتفي بأن أهزّ لها رأسي بتحية صغيرة دون أن ألفت نظره أو أحرجها .

ان ليليان لا تريدني ، وإلاّ لالتقينا بشكل ما ، في وقت ما . إنها الآن تطرّز ثوباً ، أو تقف فوق سرير طفل من أطفالها تغني له لكي ينام ، وحتى إذا فرغت من كل شيء فسوف تجد المربعات الفارغة تنتظرها . ليليان امرأة خلقت لغيري ، ومن العبث أن أجدها ، أن أنتزعها من عالمها ، وحتى لو حاولت ذلك فلن أستطيع !

ولكن ماذا يا ترى تفعل الآن؟ ماذا تفعل؟

ظل هذا السؤال يتردد في ذاكرتي زمناً طويلاً . كنت أتصورها دائماً تفعل شيئاً ما : تنظر من النافذة ، تخيط ثوباً ، تنيم طفلاً ، تضحك . كنت أتصورها هكذا ، لكن أكثر الصور إلحاحاً عليّ وأنا أراها تبكي .. لا أعرف لماذا كنت أتصورها هكذا . لم أرها مرة واحدة تبكي ، لكن كنت أتصور دائماً دموعاً

متحجرة في عينيها، لا تنزل ولا تتلاشى.. وكنت لما أتمثلها هكذا: حزينة، أشعر بالتعاسة تطوقني حتى لأحس بالاختناق!

* * *

مرَّ زمن طويل.

ليليان شامخة في ذاكرتي كأنها التمثال. أراها في الليل والنهار، وقد خفق قلبي مرات كثيرة وأنا أرى أطياف نساء يشبهن ليليان. ولحقت أكثر من امرأة، وركبت أكثر من ترام، وتوقفت طويلاً في محطات البداية والنهاية. والمحطات البعيدة والموحشة، وذهبت أكثر من مرة إلى المسرح وتعمّدت أن يكون ذهابي يوم السبت. لم أستطع أن أتوقف عن البحث كلما خرجت إلى الشارع.. لكن خروجي في هذه الفترة لم يعد مثل قبل.. لأن قلبي كان يمتلئ بالحزن والتعاسة.

وفي هذه الفترة قرّرت أن أنتهي من دراستي بسرعة. وأن أحتفظ بصداقتي لميرا.

لم نختلف كثيراً، ونحن نتحدّث. أوضحت لميرا ان المدة الباقية لي قصيرة لدرجة لا تستوجب خلافاً. وقلت لها ان الذكرى اللامعة الفرحة أفضل ما ننهي بها علاقتنا، أما الغضب، أما الكدر، فانه سيكون ذكرى مريرة لا أريدها لأحدنا. ثم ان علاقتها بميلان أعرفها ولا أريدها أن تغير شيئاً!

قبلت ميرا بهذا، بل بدت راضية. وقد منحتني نفسها بحنان خفف كثيراً من عذابي.

أما باولا فقد رأيتها ثلاث أو أربع مرات. بدت أكثر سمنة وأكثر تألقاً ورغبة في الحياة. ومع اننا التقينا مرة في النادي، ومرتين أو ثلاث مرات في مقهى، فقد انتهت تلك اللقاءات بنعومة. ولم أخلف لها إزعاجاً من أي نوع.

وفي المرة الأخيرة ، لمّا قبّلتها وضغطت على صدرها ، لكي أجعل لهذه القبلة مغزى معيناً ، كوداع .. لم تحتج . اعطتني شفتيها ، وأحسست وأنا أقبلها أن تلك القبلة كانت أجمل قبلة منحتها لي باولا !

وإيفان ورادميلا .. كنت في الأيام الأخيرة مدفوعاً برغبة التكفير. سلكت معهما سلوكاً فذاً في التهذيب والرقة . دعوتهما مرتين ، مرة إلى المسرح ، ومرة إلى العشاء في مطعم فاخر ، وأصررت في المرتين ، أن أفتح زجاجتين من الشمبانيا في صحة العروسين.

وقد بدا لي إيفان ، وأنا أودعه في رحلته الأخيرة إلى القرية ، قبل الزواج ، غاية في الرقة والثقة بالنفس . ولم يبد عليه الشك أو الخوف لحظة واحدة ونحن نلوح له بأيدينا ، وكان قبل ثوان قليلة يطبع على شفتي رادميلا قبلة طويلة ، حرصت أن لا أنغّص عليه وأنا أرقبه.

وانتهت أيام الصيف الأولى ، وانتهت دراستي ، وأصبح كل شيء فيّ ملعوناً برغبة الانتظار !

تركت الغرفة . حزمت أوراقي ، وأعطيت آلة التصوير وبعض الكتب لأصدقاء . وتركت لميرا اللوحات الثلاث التي كانت تزين جدران غرفتي ، والتي أبدت إعجابها بها . كما اشتريت لها ديوانين من الشعر . أحدهما لرامبو والآخر لبودلير ، وقد حرصت أن أكتب على ديوان بودلير العبارة التالية :

« إلى العزيزة ميرا ...

بودلير لا يعلّم الشعر إلاّ لانسان متألم ومنكود ، وأنت .. أريدك أن تكوني فرحة أكثر مما أريدك شاعرة ».

ثم اشتريت للأم ، (هكذا كنا نسمي ام ميرا) شالاً من الصوف الأبيض ، وقبّلتها يوم تركت البيت قبلة لا أعرف لماذا كانت حارقة وملهوفة

هكذا.. أما هي فقد بكت بحرقة، حتى أصبح بكاؤها حزيناً في النهاية لدرجة لم أحتمله... وبعد أن نزلت الدرجات القليلة، وهي تقف في الشرفة الأمامية، صرخت بحدّة، وقالت واصبعها يهددني:

– يجب أن تأتي في الصيف القادم.. وإذا جئت فمن أجلي، وليس من أجل ميرا.

وفي اليوم الأخير، قبل السفر، اعتذرت عن الارتباط.. ومنحته كله لليليان.

ذرعت المدينة الكبيرة اللعينة. ذهبت إلى كل مكان. زرت المتحف الصغير في نهاية خط الترام رقم ٥، لعلّي أراها هناك. ذهبت إلى الحديقة القريبة. ذهبت إلى سوق الخضرة، تجولت في الأحياء البعيدة، نظرت إلى كل النوافذ. تطلّعت في وجوه النساء، في وجوه الأطفال، لعلي أرى وجهها، وجوه أولادها، لكن عند الغروب وأنا أعود إلى وسط المدينة كنت يائساً من كل شيء!

وآخر ليلة، وكنت أنام عند صديق، حاولت أن أجعل الحديث عن الحب والذكريات. أردت أن يتكلم، لعل لديه قصة تشبه قصتي.. ورغم إلحاحه في أن أقول شيئاً خاصاً، فاني لم أقل كلمة واحدة عن ليليان.

ونمت تلك الليلة. وأتذكّر أن طيفها كان يحوم حولي مثل طير ملون، وقد حلمت بها آلاف المرات، وهي تضحك، وهي تخيط الثياب. وهي تنيم الأطفال.. لكن أوضح حلم رأيتها فيه.. كانت وهي تبكي.

وكان عليّ في العاشرة والنصف، من صباح اليوم التالي.. أن أسافر.

السفـــــر

... استيقظت مبكراً. مدينتي لا تزال في نومها. أنوار الصباح الأولى تختلط بالدخان والضباب.

استندت إلى حافة النافذة، لأودع كل شيء في هذه المدينة. وربما لآخر مرة. تراءت لي الأطياف القليلة التي تمر بسرعة، كأنها الأشباح. باعة الحليب. موزعو الصحف، طفل يحمل خبزاً، وامرأتان مسنتان تمشيان على مهل وتتوقفان لتقولا بهمس كلمات.. ثم تتابعان.

قلت في نفسي: هذه المدينة أعرفها ولا أعرفها. انها ليست المدينة التي عشت فيها خمس سنين.

البشر... الضحكات، زخات المطر، الريح. ثم الثلوج. مظاهرات الطلبة، الشوارع العريضة الميادين.. التماثيل.. غابات الأطفال الضاحكين في مواكب مستطيلة.. وليليان.

هل هذه مدينتي؟

أتذكر كل شيء.. ولا أتذكر. تمتد أمامي السنوات الخمس بضجرها، بأيامها الرائعة.. عبثها وجنونها الحافل.. وتمتد لحظات عنفوان زاهية براقة:

«ايفان.. ايفان، أريد أن أسألك سؤالاً محدداً.. ويجب أن تقول الحقيقة: هل الله موجود أو غير موجود»؟

ويكرع كرامازوف الأب كأس النبيذ. وينظر بعيون مترقبة ليسمع كلمات ايفان، فلما يجيبه تضج القاعة بالتصفيق (يقول ان الله غير موجود) أما النهاية فتبلغ الذروة التي لا يحلم بها بشر. لقد جن ايفان أو كاد..

والأبله وهاملت، وبائعة الأزهار الاسبانية. والقبو المعتم الصغير بموسيقاه الغجرية. والقبو الكبير الآخر، والآلهان الحزينان كحمامتين يتجاوبان، يتناغيان، وعندما تصرخ بتلك الأغاني الحزينة، يمزق وتره، فيشده ويواصل العزف..

وأيام الربيع.. الرحلات، العناق، السكر والنوم في محطات القطارات.. والشهوة في العيون.. والشبق المثور في زغب الآذان وتحت الحلمات.

هل هي نفس المدينة؟ هل يلتقي الصيف والشتاء على سطح واحد؟ هل يمكن أن يكون الانسان تعيساً وفرحاً في نفس الوقت؟

حجارة الأبنية وأنا أطل عليها الآن، من هذه النافذة، وبالتأكيد لآخر مرة من هذه النافذة، صماء قذرة، وقد تحجر فوقها الدخان والزمن. الأشجار بأوراقها الكبيرة المتربة. تنتظر مطراً صيفياً، مثل ذاك المطر، ليغسل عنها ترابها وانتظارها.

الرصيف الضيق. باستقامته المضجرة الرمادية، يمتد طويلاً فجا. يتوقف

ثانية صغيرة عند حجر تكسرت حوافه . ثم يتابع مسيرته . حتى يلتقي بالميدان . فيدور حوله..

أطراف الشبابيك . وقد امتدت فوقها صفائح الزنك الصدئ. الستائر في العمارة المقابلة . المداخن . وعلى ذلك الشباك الذي يواجه شباكي.. الآن.. احواض الزرع الصغيرة .

هذه المدينة أعرفها ولا أعرفها . السنين الأولى . والسنة الأخيرة . عوالم متصادمة . رغبات مستباحة . ثم الارتداد . القطط اللاطية في زوايا الأقبية . أو في أحضان نساء متعبات . النداءات الداخلية المسننة المذهولة برغبة معانقة البراءة والنظافة تزدريها النساء اللواتي لا ينظرن أبداً .

أربع سنين.. خمس سنين.. مقابل نظرة واحدة يا ليليان.. كنت أنتظرك منذ آلاف السنين.. وعندما امتدت يدي بيأس.. تلاشت . تركت في نفسي حزناً لا يمكن أن ينتهي .

وأنا أفكر . أحلم . ربما على صوت هلوسات داخلية صاخبة . أفاق . ارتكى على ظهر السرير وأخذ يتطلع إلي . أحسست بنظراته تخترق ظهري . لما التفت كان ينظر إلي بتأمل أخرس . كأنه يراني ولا يراني . انتبه فجأة ، وسألني :

-- منذ متى وأنت مستيقظ ؟

-- قبل قليل !

-- وماذا تفعل ؟

-- أرقب المدينة !

-- لكي تتعرف عليها ؟

-- لكي لا أنساها !

- وهل اكتشفت شيئاً جديداً؟

- لا أريد أن أكتشف. بل لأتأكد.

- من أي شيء؟

- انها نفس المدينة التي أعرفها والتي عشت فيها.

- انها نفس المدينة : الأبنية. الشوارع. الأقبية. وحتى المداخن نفسها لم تتغيَّر!

- المدن هي البشر.. العلاقات بين البشر!

- كلام قلته للمرة الألف!

- لكنه يبقى جديداً. وسوف يظل كذلك!

- وماذا يترتب عليه في الساعات الأخيرة وأنت تغادر هذه المدينة؟

- لا شيء.. لا شيء!

وقام إلى الحمام.. وظللت في مكاني.

المدن.. البشر.. وأي مدن وأي بشر؟ ما أقسى أن يتذكر الانسان!

اليوم الأول : الريح الشتائية تصفع الوجوه والقطارات. وحدي على رصيف المحطة بحقيبتين.. لا أعرف ماذا أفعل في مدينة أراها لأول مرة. يتقدم مني حمال، قابل مثلي كثيرين على الرصيف. يلتقطني، أسير وراءه مثل قط أصعد السفح. ولما ألقى الحقائب، أمام باب الفندق، أخذ نصف ما أملك.

وأتيه في شوارع أيام الآحاد، أفتش عن لقمة. وأظل أتطلع في الوجوه والأرصفة والأشجار، حتى يمتصني بار لبحارة النهر واليائسين.. وآكل ما يأكلون، ثم يتقيّوني البار، بعد منتصف الليل، ضائعاً مخموراً. وأنام حتى عصر اليوم التالي!

كان ذلك اليوم الأول .. ومثله الأيام الأخرى . وفي أيام بعدها .. تضيء الدنيا : رأس السنة ، نادي الطلاب الأجانب ، الوجوه مشدوهة والجبن ينغرز في العظام .. وفي الدقائق الأولى للسنة الجديدة تلتحم العيون المحمرة في معركة من يفوز بتلك الفتاة البدينة . التي ابتسمت للجميع وجلست على طاولات الجميع .. وبعد ساعة من التحدي . تتأبط الفتاة البدينة ذراع صديق لم تكتشفه العيون طوال ساعة الالتحام وتخرج .

وفي رأس السنة الثانية : الملامح .. العلاقات . العالم .. كل شيء يتغير .. وحين أعلنت الجوقة بداية السنة الثانية . اطفئت الشموع كلها . ما عدا شمعتين ، ظلتا رمزا لتحد أبله .. كانت شمعتي وشمعة صديقي .. بعد أن فشلنا في اقناع فتاتين بالسهر معنا !

وتعبت من الأيام ونحن ندور حولها . أجسام رجال وعقول أطفال .. شهوات كلاب وخصيان ديكة ! وحملنا كل الهموم التي تعبر إلينا من البعيد .. وكانت أحلامنا طوفانا لا ينقطع !

والأصياف وقطاف الكرز .. وميرا التي تريد أن تكتشف هذا الفنان الأعوج الحنك .. ونصعد ونلهث .. نقرأ ونرتمي على العشب الأخضر .. وتتدحرج جولنا الكلمات في القصائد التي تبعثرها ميرا على أطراف الكتاب الذي تحمله ..

كانت ميرا تتقدم وتتراجع بسرعة منشار .. كانت فرحة مذعورة .. وكثيراً ما كنا غرباء في الفراش !

وطلبة من جميع الدنيا .. وأحلام وأحلاف سياسية . ومعارك لا تنتهي .. والصيف ومعسكرات الشبيبة واحتقار للرياضة والهوايات .. وانتظار شيء لا يأتي ، ثم الحسرة والانتظار مرة أخرى !

أهذه هي المدينة التي أعرفها؟

المدينة في مكانها، ثابتة قوية، تستقبل الآلاف كل يوم، تودع الآلاف كل يوم. الناس يمرون تحت هذه القنطرة، التي يسمونها الحياة. يمرون من ضفة لأخرى، والقنطرة باقية، تنظر إلى الجميع بحياد صلب. والناس هم الذين يتوقفون تحت القنطرة.. يتوقفون لينظروا. ليحلموا، ليشدوا على أيدي بعض بدفء.. ثم يقولون كلمات فرحة.. كلمات حزينة ويواصلون الرحلة!

الناس هم المدن!

السنوات الأربع.. السنة الخامسة.. فدى لحظة أرى عينيك يا ليليان!

الجبن، الغرور، الركض المجنون.. وأخيراً الانتظار اليائس لانسان لا يأتي!

أين أنت يا ليليان؟ هل تجدي أية كلمات أقولها الآن للريح؟ لو كنت قانعاً ان الريح التي تمر الآن صديقة.. صديقة بمقدار ما، لقلت لها آخر الكلمات قبل أن أترك المدينة، لكن الريح اذن صماء، قنطرة أخرى محايدة، لا تعرف معنى الألم الانساني، وتنظر بسخرية.

لمن أقول كلماتي الأخيرة يا ليليان ما دمت بعيدة هكذا؟

سخر مني ايفان لما سألت رادميلا عن تلك المرأة الشمس. كانت نظراته تمتلئ ضحكاً صامتاً. أوجعتني ضحكاته الصامتة.. ورداميلا ذاتها لم تتذكرها.. ولو سألت أشجار الجبل، البحيرة، الزورق الذي رأيتها تركبه مرة، لسخروا مني سخرية ايفان.. أو أكثر!

من العبث أن أقول كلمة واحدة الآن.. لقد انتهى كل شيء!

لما امتدت يده إلى كتفي أجفلت. تراجع خطوة صغيرة إلى الوراء وهو يبتسم، وقال يعتذر:

– إذا أردت فسوف أرسل لك آلاف البطاقات. كل بطاقة تصور شيئاً في هذه المدينة اللعينة، وبمجرد ان تنظر إلى الصور.. تتذكر كل شيء!

– فكرة جيدة، ولا تنس ان تفعل!

– يا سيدي المدينة في مكانها، وسوف تعود إلى هنا مرات كثيرة. من يشرب من ماء هذه المدينة يعود إليها حتماً!

ولما رآني لا أجيب، أضاف:

– ما رأيك لو عدلت عن السفر الآن؟ يمكن أن تسافر بعد اسبوع أو اسبوعين.

– وماذا تريدني أن أفعل خلال هذه المدة؟

– تستعيد صور المدينة.. وتبهج نساءها!

– انت سيء الظن، وتريد أن تستفزني!

– يجب أن نأكل قبل أن نتحرك، ثم سأمر على مفيتلانا، لأنها تريد أن تودعك!

المدينة تكبر، تتسع، تمتلئ بالسيارات والرجال والنساء. الدخان الصباحي يتراجع في الشمس اللامعة. النوافذ تنفتح والأغطية تلقى باهمال. الوجوه التي تطل شاحبة وعليها آثار النوم.. أشجار الطريق تبرق خضرتها، حجارة الرصيف المكسورة لم تعد تبين في زحمة البشر.

المدينة الآن ليست هي نفسها التي كانت قبل ساعة، ولن تكون هي نفسها عند الغروب أو في منتصف الليل. المدينة تتجدد كل ساعة. تتغير. وأي شيء في المدينة يتغير؟ الحجارة راسخة في أماكنها لا تتحرك. الأشجار على أطراف الأرصفة تستقبل الشمس وتودعها كل يوم وهي ثابتة لا تغير أماكنها.. والتماثيل والحدائق والنوافذ.. الشيء الوحيد الذي يتغير في هذه المدينة، وفي كل المدن، هم البشر. يفرحون، يحزنون، يبكون في الليل بصمت. يضحكون يضاجعون ويندمون.. والانتظار والأمل.. والأيدي التي تشتبك بخوف.. وأخيراً هناك شيء اسمه اللهفة.. الحب.. وليليان!

سوف لا أندم.. قررت ذلك أمس بحزم كاهن. قلت لنفسي: منذ الغد يجب أن أبدأ حياة جديدة.

الغد الذي أقسمت أن أصونه، أن أهبه للحياة الجديدة، سرقته المدينة التي أودعها الآن.. سرقته منذ مطلع النهار. أما الأفكار التي أصررت أن أشغل نفسي بها، أتركها الآن لكي تسبح في ضباب صباحي لمدينة معذبة ورائعة!

وأنا أنفتل عن النافذة، قلت لنفسي بصوت هامس لا أريد أحدا ان يسمعه: سوف أبدأ من الغد.. ويجب أن أبقي هذا اليوم للذكرى.. للسنين التي قضيتها هنا.

* * *

بدت لي المحطة وأنا أدخلها هذه المرة ضاحكة بحزن. كان دخان القطارات يتبدد بسرعة في شمس الصيف، ولا يشبه الدخان الذي لامس وجهي أول مرة.. كان ذاك الدخان كثيفاً، ثقيلاً لا يتحرك.. أما الآن فيذوب ويطير بين الناس.. والبشر انهم الآن يتراكضون.. يدخلون ويخرجون بالعشرات.. بالمئات. يقرأون اللوحة الكبيرة ثم يتراكضون.. حقائبهم بأيديهم

أو على عربات وراءهم أو أمامهم. الوجوه التي أراها الآن مضيئة فرحة.. والمحطة ذاتها تتراقص في الشمس كأنها تغتسل!

ومثلما يحصل لكل المسافرين، وجدت نفسي وسط مجموعة من الأصدقاء. حاولت أن أظهر متماسكا مشدود الأعصاب. رسمت ابتسامة صغيرة متزنة على شفتي، وقررت أن أمنح لكل واحد ابتسامة ذكرى وكلمة وداع.

كانت ميرا شاحبة، وعيناها لا تفارقاني. أما رادميلا فقد بدت راضية تماماً: ابتسامة عذبة، كلمات شجاعة تبذرها هنا وهناك دون تردد. وكأنها لا تخاف شيئاً أو أحداً. والأصدقاء الرجال.. مع بعض الصديقات، يتظاهرون بالمرح والجد، في الوقت الذي لا يلزم كل هذا الجد أو هذا المرح.. والقهقهات.. التي تتردد في الحلقة الصغيرة.

قلت لميرا لأخلق جوا سريعاً من الالفة:

– يجب أن تأتي في الصيف القادم.. سوف أنتظرك خلال الصيف.

وصمت لحظة، ثم أضفت بخبث أبله:

– لا يهم ان كنت وحدك.. أو كنت مع أحد!

وارتخت شفة ميرا، تريد أن تبتسم، لكن الابتسامة لم تطاوعها، وقبل أن تفلت الفرصة من رادميلا، قالت:

– الأفضل أن تأتي أنت.. ميرا لا تستطيع ان تأتي وحدها.. ومجيئك هنا من أجل الجميع، وليس من أجل ميرا وحدها.

قال صديق، يريد أن يخلق شقاقا وداعيا عذباً:

– من الآخرون.. رجال أم نساء؟

– الآخرون هم الآخرون.. وأنت تعرف!

وضحكت ميرا.. أما رادميلا فقد اقتربت، ونظرت إليَّ باتهام!

قال صديق ثان، يتابع الهجوم الصغير الذي بدأ:

– اذا كان الآخرون نساء فالأفضل أن لا نأتي.. وميرا تستطيع أن تذهب إلى هناك!

صرخت بطفولة أريد أن أغير اتجاه الهجوم:

– ميرا.. يريدون أن يحرضوك، أنت تعرفين أي انسان أنا!

هزت ميرا رأسها والابتسامة الشاحبة سلاحها الأخير في الدفاع.

قالت رادميلا:

– المهم أن يأتي، وميرا بالذات ستكون أكثر الناس سروراً.

والتفتت إلى ميرا تسألها:

– أليس كذلك يا ميرا؟

– بالطبع.. بالطبع؛ ولكن لا أظنه سيأتي.. يعد كثيراً لكنه ينسى!

– أنا يا ميرا؟ ماذا وعدت؟

ردت رادميلا وقد شجعها كلام ميرا:

– عندما كنا في الجبل حرضته مرات كثيرة لأن يكتب اليك، وأعتقد لم يكتب مرة واحدة. هل كتب؟

– أما عن الكتابة فلا أطمح برسائل كثيرة، أريده أن يحافظ على، وأن يتذكرنا.. ويكفي لو كتب رسالة كل شهر!

- ثقوا اني سأكتب.. لا تكونوا سيئي الظن إلى هذه الدرجة!

وعادت لهجة الهجوم من جديد. قال صديق:

- نريد أن نعرف كل شيء قبل أن تسافر.. وميرا لن تغضب. النساء، نساءك لمن تركتهن؟

- ميرا تعرف ان ليس عندي جيش من النساء!

- أنا لا أعرف شيئاً!

ردت ميرا باستسلام!

- من يعرف؟

سأل صديق.

- قالت رادميلا بخبث:

- أنا التي أعرف.. وأي شيء أعرف! أعرف جزءاً من علاقاته.. أما علاقاته كلها فلا يعرفها إلا الشيطان!

وضحكوا بصخب.. حتى ميرا ضحكت أو تظاهرت بالضحك لكي تبدو مثلهم.. هل يعرفون ليليان؟ هل تقصد رادميلا ليليان؟ أتذكر اني قلت لها ذات مرة عن باولا، كان حديثاً عارضاً، ولم تعلق عليه في وقته! بدأت رادميلا من جديد، تريد أن تنتقم لليلة الجبل، ولكن تلك الليلة والوحيدة هي التي اختارتني، لو كان ايفان موجوداً لعرفت كيف أوجه لرادميلا طعنة.. لكن ما فائدة الانتقام؟ لم يخطر ببالي أن أسيء لرادميلا.. كانت إنسانة عندما تركتني لليليان.

قلت.. وتظاهرت بالبراءة:

– رادميلا.. يجب أن تقولي كل شيء.. اذا لم تقولي فسوف تظن ميرا انك تعرفين أشياء كثيرة، وسوف تعتبر أني كنت أخدعها!

– أنا وميرا نعرف كيف نتصرف.. سأقول لها كل شيء، وأنت.. يجب أن تعترف بكل شيء قبل أن تسافر!

– وماذا تريدينني أن أقول يا رادميلا؟

– ماذا فعلت؟ أين النساء اللواتي تعرفهن؟ لماذا أخطأت بحق ميرا؟

كانت تريد أن تستمر، لكن ضحكة صاخبة ملأت فمها فجأة، حتى ان دمعتين صغيرتين انحدرتا من عينيها. تقدمت نحو ميرا، طوقتها من خصرها، وهي تقول لها شيئاً لم نسمعه، ولكنهما ضحكتا معاً!

وتحركت الكتلة الصغيرة.. بعض الصديقات أخذن بالحديث.. وميرا ورادميلا ابتعدتا قليلاً.

كان يجب أن يفعل شيء خلال الفترة الباقية. قلت لصديق، وأنا أؤكد على ذلك للمرة الألف:

– لا تنس أن تحزم الكتب جيداً.. وارسلها بسرعة.

قال صديق وهو يقترب مني ويضع يده على كتفي:

– تعرف.. ليس لدي امرأة، ألا تتصدق علي بواحدة قبل أن تسافر؟

– انتهى وقت الصدقات.. تصدقت بهن كلهن!

– واحدة تكسب أجراً كبيراً عند الله!

– قلت لك: الصدقات وزعت، وما عليك إلا أن تنتظرني حتى أعود في الصيف القادم!

- وهل أنتظر سنة كاملة؟

- وماذا أفعل اذا لم يبق لدي إلا ميرا.. هل تريدها؟

- ميرا مثل أختي.. أريد غيرها!

- الصيف.. الصيف القادم..

- كان اثنان من الأصدقاء قد أصبحا وراءنا.. سمعا جزءاً من الحوار الأخير. ضجا بضحك عال مدو لفت نظر الناس الكثيرين الذين كانوا يحيطون بنا.

قال أحد الصديقين:

- هذا.. هذا..

وأشار اليه وتابع:

- لديه من النساء ما لدى الجميع!

رد عليه بعصبية:

- وماذا يخسر لو أعطانا امرأة أو اثنتين!

- من يسمع ما تقول يظن ان جميع الناس مثلك.. هذا الرجل، وأشار إلي، ثم إلى ميرا وتابع:

- لا يعرف غير هذه المرأة.

التفتت ميرا.. ثم جاءت نحونا

قال لها صديق:

- ميرا.. إحذري إنهم يتآمرون.

- على أي شيء؟

قلت لميرا وأنا أريد أن أخفف من حدة الاحتمالات أو الخطأ:

-- ميرا.. الجميع يريدون أن يجعلوني بنظرك سيئاً.. ماذا تقولين؟

ودون أن تجيب. طوقتني وقبلت شفتي.. كانت قبلة دافئة وحزينة. ورأيت رادميلا تضحك في تلك اللحظة وتغمز لي بعينها. وكأنها تذكرني بشيء!

* * *

قلت لكم ان الخطيئة لا تولد في قلب الانسان. لكن في قلب الصدفة العمياء، في مكان مظلم لا يعرف لون الشمس ولا طعم الريح. في تلك البؤرة السوداء اللئيمة تولد الخطيئة.

هل تصدقون انني جئت إلى المحطة ثلاث مرات خلال الاسبوعين الأخيرين؟ يجب أن تصدقوا، لأنني أنا الذي جئت. ودعت صديقين واستقبلت صديقاً ثالثاً!

كانت المحطة في المرات الثلاث تموج بالبشر. بالعربات والحقائب وباقات الزهر. رأيت فيها دموعاً حزينة، ورأيت دموعاً فرحة. أناسا يأتون وآخرين يذهبون. وأنا.. اذ أسافر الآن، فقد رفعت راياتي البيضاء بانكسار ولم أعد أحلم بشيء! انقضت أيام الجبل كلها. وتلتها شهور طويلة من البحث اللامجدي والانتظار. رأيت ليليان مرتين. كانت المرتان بائستين، وتمنيت في لحظات معينة لو أني لم أرها.

والآن.. والشمس تبدد دخان القطارات، باقات الزهور المحمولة بخجل، حقائب المسافرين البليدة والمليئة بحاجات غير نافعة.. وأخيراً مجموعة من البشر جاءوا ليقولوا لي كلماتهم الأخيرة.. قبل الرحيل!

لن أشتم الآن أحدا ، وآباء الكنيسة سوف يغفرون لي خطاياي ، حتى تلك الخطيئة ، عندما شتمت الكنيسة وأعلنت احتقاري لافكار كثيرة .. ولم أحترم يسوع الناصري بما يكفي .. لكن .. مع ذلك ، أريد أن أفهم شيئاً واحداً ، قبل أن يغيبني التراب وأموت :

ما أريد أن أفهمه بسيط لكل واحد منكم ، وربما كان من العبث أن أسأل .. وأنتم .. نعم أنتم الذين يجيبون .. لكن انتظروا ...

ما كدت أسحب نفسي من ميرا حتى رأيتها .

لست ساخراً ، ولم أكن حالماً أو متوهماً .. رأيتها بعيني هاتين .

كانت مسرعة . قرأت اللوحة لتعرف أين يقف قطارها ، وما كادت ترتخي عيناها عن اللوحة حتى رأيتها !

ليليان .. العيون ، الوجة ، الدم ، اللهفة ، الحزن الشفاف .. كانت تحمل حقيبة متوسطة الحجم بيدها اليمنى ، وتقود ابنها الصغير باليد الأخرى .

كانت ليليان ، أيها الناس .

ارتجفت لما رأيتها . خانتني قواي وشجاعتي (أنا شجاع بمقدار كبير في بعض اللحظات) أما الابتسامة الصغيرة التي رسمتها على شفتي عندما دخلت المحطة ، فقد سقطت بين ساقي المرتجفتين !

رأتني ليليان . لمحت ذلك من الشحوب الخاطف الذي ارتاح ثم استقر في وجهها ، من الضحكة الحزينة التي انفجرت في عينيها فجأة .. لقد رأيت ليليان .. وليليان رأتني هذه المرة ، وليس مثل المرة التي كدت أن أسحق فيها تحت عجلات السيارة ، عندما رأيت ترامها يسير !

باستسلام معتوه سقطت الحقيبة من يدها.. سقطت أو تركتها تسقط، يجب أن لا تسألوني، وقفت مذهولة.. هل تتقدم؟ هل تدير وجهها بعصبية وتتابع رحلتها؟ وأنا.. ماذا أستطيع أن أفعل؟

كيف بدأ المشهد؟ كيف انتهى؟ صدقوني.. لا أعرف. لو قلت لأحد الآباء المقدسين أني لا أعرف لاخترقتني نظراته، لشتمني في سره. لقال ان الخطيئة المميتة تنام في دمي ولن أشفى منها!

ركضنا باتجاه بعض. وقف الطفل مشدوها عند الحقيبة. أين التقينا؟ في منتصف المسافة؟ أنا الذي ركضت بسرعة أكبر؟ هل ركضت نحوي؟ لا أحد على وجه البسيطة يعرف الذي حصل! مدت إلي يديها الاثنتين. كانتا يدين خاشعتين. كانتا تمتلئان ضراعة. وأنا بعد أن أمسكت كفيها، لا أعرف كيف امتدت يداي إلى الساعدين. امسكتها من ساعديها، ونظرت إلى وجهها وكدت أبكي. هل قلت لها شيئاً خلال اللحظات الأولى؟ هل قالت لي شيئاً؟ صدقوني أيها الآباء المقدسون أني لا أتذكر أبداً.

في لحظة ما ارتخت عيناها. انطفأ الضياء في صدري فجأة. أظلمت الدنيا ودومت بي تريد أن تنتهي. وفي تلك اللحظة شددت على ساعديها، أريد لعينيها أن تنطقا من جديد، ان تنقذا روحي التي أصيبت بالدوار. وبشيء أكثر من الألم. صرخت بيأس:

- ليليان.. أين أنت يا ليليان؟

نظرت إلي ولم تجب. كانت نظرتها ينبوعاً متدفقاً من اللوعة والألم. كانت نظرتها توسلاً أخرس ان أهرب، ان أتلاشى، وكانت نداء حاراً في أن نسمر في تلك البقعة مثل نسرين تعاركا ثم انتحرا.. وظلا في مكانهما لا يريدان شيئاً.

– قولي لي شيئاً.. أي شيء يا ليليان..

ولأول مرة أسمع صوتها. كان مشروخاً من لذة العذاب. قالت كلمات لم يسمعها أحد..

– وماذا تريدني أن أقول؟

– أين كنت طوال هذه السنة؟.. قولي بحق السماء!

– أنا؟.. أنا؟ وأين يمكن أن أكون؟

– ليليان.. آه لو انك لم تظهري!

– ولكني لا أعرف انك هنا.

– لو كنت تعرفين. هل يمكن أن تفعلي شيئاً؟

– لا أدري!

وهزت كتفها. عيون ليليان كانت مشعة، نازفة بتلك الأشياء التي لا تعرفها الكلمات ولا يمكن أن يستوعبها عقل. عينا ليليان.. عيناها.. ما أشد احتراقهما وذكاءهما.. ما أشد الفتنة المرعوبة فيهما.. أيها الناس.. صدقوا انني كدت أموت لما نظرت في عيني ليليان!

التفت بحيرة. كان الطفل لا يزال هناك إلى جانب الحقيبة، وقد شرع يبكي. نظرت إلي وهي تمسك براحة يدي اليسرى، لا تريد أن تتركها. ولا تعرف هل نسير نحو الطفل؟ هل تناديه؟ هل تهرب؟ أية أفكار يمكن أن تغزو فكر الانسان في موقف مثل هذا؟ كنت أرى بغموض كل شيء يتموج تحت شعر ليليان، وفي صدرها. كنت أفكر معها. لم نكن نفكر، كنا نجتاز عتبات من الموت في كل ثانية، ندوس فوق آلاف الأحلام، نبكي ونفرح، نغرق ونموت.

جاء الصغير وحده تاركاً الحقيبة. ركضت. حملت الحقيبة وعدت نحوها. وأنا أعود وجدت الكتلة الصغيرة من الناس. البشر الذين كنت معهم قبل دقيقة. وقد تحركوا. واصطفوا مثل طابور. وهم ينظرون الي. كانت عيونهم كأسياخ حمراء. متسائلة، عاتبة، مستغربة، حتى رادميلا بدت على البعد حزينة.

ماذا أفعل الآن؟ وليليان لماذا جاءت؟

دون وعي سألتها:

-- ماذا تفعلين هنا يا ليليان؟

-- مسافرة.

-- مسافرة؟ إلى أين؟

هزت رأسها بحزن موجع. وهي تقول:

-- إلى إيطاليا.. وأنت؟

-- أنا؟.. لا أعرف يا ليليان.. ربما كنت عائداً إلى الوطن!

سمعت صفيراً. صفير أحد الأصدقاء. ثم نادى علي. كان يجب أن أفعل شيئاً تلك اللحظة.

قلت لليليان بطريقة راجية:

-- الأصدقاء...

وأشرت اليهم.

ترددت.. ماذا تستطيع أن تفعل من أجلي؟ ماذا يهمها من أصدقائي في هذا الموقف البائس؟

نظرت إلي بذعر. نظرت إلي بعينيها.. عيناها مشاعل مقدسة، ألق فجر ربيعي.. أول محراث شق الأرض.. قالت، هي التي قالت:

- أين كنت طوال الشهور الماضية؟

- في هذه المدينة اللعينة يا ليليان!

- ولماذا لم أرك؟

- وأنا.. لماذا لم أرك؟ فتشت في كل مكان. حفرت الأرض. بحثت تحت النوافذ في الليل. ارتميت في المقاهي. نظرت إلى كل الوجوه، ولم أرك الا مرتين!

- رأيتك مرة واحدة. حزنت كثيراً اني لم أنزل في المحطة التالية، ولم أعرف كيف أراك بعدها!

ضرب أحد الأصدقاء كتفي. كدت أموت وأنا أتصور ان ليليان يمكن أن تذهب. التفت اليه برجاء معتوه. نظرت إلى وجهها وعينيها من جديد. هزت رأسها أكثر من مرة، وضحكة لا يمكن أن يراها غيري ترتسم على شفتيها، وكأنها تفكر، وقررت أن تسير معي.

سألتني وهي تسير قبلي بنصف خطوة.. التفتت حين سألتني:

- متى يسافر قطارك؟

- في العاشرة والنصف.. وأنت؟

- في العاشرة وأربعين دقيقة.. لقد تأخر ربع ساعة عن موعده!

كانت العيون تنصب علينا مثل رصاص مصهور، تدرس وجهينا، فستان ليليان، طفلها، حركاتها. كان الصمت في تلك البقعة ثقيلاً مزمناً..

وخطراً. لم يعد أحد يسمع هدير القطار أو صراخ الباعة.. وأنا.. كنت أرتجف وقد تملكني حرج لا أعرف كيف أقاومه أو كيف اداريه!

لم أقل لهم سوى اسمها. قلت ليليان، تاركاً لكل واحد منهم أن يعرف نفسه، أن يقول اسمه. لم أشأ، أو لم أستطع أن أقول جميع الأسماء. لو قلتها لخانتني قواي، لسقطت من التعب والخوف.

كانت ليليان تبتسم تلك الابتسامة المظفرة وهي تمد يدها الصغيرة لكل واحد. كانت خجولة، فلم تدم نظراتها إلا ثانية عابرة في كل وجه، وكأنها مصممة ان لا تحفظ وجهاً. أو لا تريد أن ترى أيا من الوجوه بعد ذلك!

بمشقة بالغة. بعد أن ران الصمت من جديد، قلت أخاطب رادميلا:

– رادميلا.. تعرفين ليليان.. كانت معنا في الجبل السنة الماضية.

وتنفست بصعوبة.. ثم أضفت:

– هل تتذكرينها؟

نظرنا في وجوه بعض. كانت نظرات ليليان معتذرة، كأنها لا تتذكر. أما رادميلا فقد قلبت شفتيها ورفعت كتفيها، كأنها لا تريد أن تتذكر.

وعاد الصمت من جديد!

أيها الاله القاسي. أيتها الصدفة العمياء، لماذا يحصل كل شيء بهذا الشكل؟ لو رأيت ليليان في مكان آخر، في وقت آخر.. لعصفت بحياتي أكبر انشودة يمكن لانسان واحد أن يحملها.. أما هنا. فان غمامة من الحزن الأسطوري تجثم فوق صدري، تحولني إلى بقعة سوداء في وسط هذا الفرح الأخير.

قال صديق يريد أن يقتل الصمت والحرج :

– لم نكن نعرف ان لك هذه الصديقة الرائعة !

احمر وجه ليليان. رأيت الحمرة تتورد فوق وجنتيها بمقدار الشحوب الذي علا وجه ميرا. وخيم فوقنا توتر يوشك أن يتحول إلى طوفان. قلت وأنا أضغط الحروف لكي لا تفلت :

– في الصيف الماضي التقينا. كانت رادميلا موجودة.. وبعد ذلك لم نلتق !

كنت أريد من رادميلا أن تساعدني. كنت أريد شيئاً أن يحصل، ولا أعرف أيا من الأصدقاء قال :

– لقد حانت ساعة الوداع !

– هل يعرف أحد منهم معنى الزمن ؟ الزمن الثقيل والسابح في الفضاء؟ الموجود والمتلاشي؟ العبقري والابله؟

كان زمنا حاداً مثل سقوط نيزك. تلاشى الزمن دون أن أحس به. وكان ثقيلاً كأنه يد عدوة تطبق على الرقبة. كان زاهياً وغاضباً. هذا الزمن نفسه. الذي نرقبه في عقارب الساعات يتحول إلى انصال تنغرس في القلب تماماً. ويتحول إلى نقطة في بحر لا حدود له. نفس العقارب التي لا تغير اتجاهها أبداً، وتسير بنفس النعومة والقوة، تترك في ذلك المكان من الصدر لعنة لا يمكن للأيام أن تمحوها !

ليليان الكائن الذي أراه أمامي، بوجوده الحي المتدفق، بشموخه الأبدي الذي لا تستطيع عقارب الزمن أن تغيره، بجبروته الكلي القوة، وبضعفه المتناهي، هل يمكن أن أفقده مرة واحدة والى الأبد؟

سيري أيتها القطارات . سيري في كل الاتجاهات ، احملي البشر ، احملي احزانهم وأفراحهم ، احملي كل شيء.. أما ليليان فلن تستطيعي أن تغيري مكانها من ذاكرتي .. في الجبل ، وهي متمددة على رمال البحيرة ، وهي ترفع رجلها لتضعها على حافة الشرفة .. ثم ونحن نرقص في تلك الليلة الشديدة النحول والمتلاشية .. والآن ، هنا ، في محطة القطار .. في الدقائق الأخيرة .

تصوروا قبلت الجميع ما عدا ليليان . جميع الذين كانوا حولي ، نساء ورجالا .. وكدت أخطئ فأقبل رجلاً كان يقف قريباً منا .. وليليان لم أقو على أن أفكر بتقبيلها .. كانت يدها وهي تهز يدي تحمل ثقة الأنبياء و بسالتهم .. وعندما وقفت في شباك القطار ، وكانوا يقفون حولي ، مددت عنقي حتى كاد يلامس رأس ليليان .. قلت لها بحنين جارف :

– أريد عنوانك يا ليليان ، لأكتب لك ، وقد أعود ..

ودون أن تجيب هزت رأسها بأسف تعتذر . والكلمة الوحيدة التي قالتها :

– لا فائدة !

قبل أن يتحرك القطار بدقيقة أو دقيقتين ، نظرت ليليان إلى ساعة المحطة بذعر ، وكأن الساعة فاجأتها . مدت يدها للمرة الأخيرة ، فلما عانقت يداي يدها شعرت ان الدنيا تظلم ، تنتهي . كدت أبكي . كدت أصرخ . أردتها أن تتوقف ، أن تفعل شيئاً غير أن تذهب ، لكن ليليان كانت واثقة وحازمة . هزت يدها بقوة هذه المرة ثم سحبتها مثل قطة مذعورة .. وهربت . لم تشأ أن تتوقف أكثر .. حيتهم بيدها وهي تبتعد !

عاد لوجه ميرا الدم . رأيتها تبتسم . أما رادميلا فقد اختفت ضحكتها ، وهي تحاول أن تفكر .. ان تتذكر . والأصدقاء كانوا يقفزون ، يحتضنون

صديقاتهم، يغازلون الفتيات في القطار. يضحكون بصخب. وبين فترة وأخرى يفعل أحدهم شيئاً لكي يضحك الآخرون!

كنت أريد للقطار أن يتحرك. فقدت كل قدرة على أن أكون موجوداً وحياً. كنت أريد أن أرتمي على مقعدي وأبكي. كنت أريد أن أقفز من القطار وأنتهي. كنت أريد أن ألحق بليليان.. لكن كل شيء أصبح مستحيلاً!

ما كدت ألوح لهم بيدي من نافذة القطار. وهو يسير. حتى اندفعت مثل حيوان هائج إلى الناحية الثانية.

رأيت ليليان. زحفت إلى نهاية الرصيف المقابل. كانت هناك. لم يكن بيننا إلا أمتار قليلة.. ورأيت في عينيها أكثر من دمعة. رأيت في عينيها نهاية كل شيء.. ومع ذلك ظلت ترفع يدها وتلوح.. ولما ابتعد القطار رأيتها مثل حمامة صغيرة رمادية.. حمامة حقيقية تخفق بأجنحتها.. لكن بحزن!

أحلام الشمس والأمطار

... انقضت سنوات. دارت الارض مرات. كبر الصغار. وبعض الكبار ماتوا.. وليليان تصخب في ذاكرتي مثل زوبعة. لا تتوقف ولا تهدأ. اذا انزلقت الشمس وبددت ضباب الصباح. اذا جاءت الامطار.. اذا حلمت السماء ببشرى المطر. أتوقف لاسرق شيئاً من الماضي. لاستعيده.. وأي ماض؟ ليليان بالذات!

الكائن البشري يتوارى. يصغر. ثم يتحول الى حمامة رمادية تطير بضجة في ذاكرتي التي بدأت تهرم وتنسى. فأتذكر الرعشة الخائفة. الدهشة. الشوق. عناق الايدي.. أتذكر وتتهيج في نفسي رغبة البكاء والتحطيم!

أعرف الكلمات التي تطوف في رؤوسكم: حالم. مراهق. محروم. رومانتيكي. وماذا غير ذلك؟ أنا أعرف هذه الكلمات. وأخرى غيرها أكثر بذاءة. وأعرف أقسى الشتائم. ولكن ما دمنا لم نصبح أعداء بعد فلماذا نشتبك بالايدي؟ بالالسنة؟ قولوا ما تشاؤون. لن أسمع.. وأنتم يمكن أن تكفوا عن القراءة..لكن دون شتائم. ونسير. كلٌ في طريق. وقد نصبح أصدقاء (القلب الانساني شديد الروعة والقسوة) كما فعلنا أنا وميرا.. أنا وباولا.

ولكن أي شي حصل خلال هذي السنين؟

عدت الى الوطن. التحقت بوظيفة وظللت استعيد كل يوم من أيام السنين الخمس. لكن مشاغل الحياة. همومها. جعلت الذكريات تضمر في قلبي. ثم تبتعد. ما عدا هذا المخلوق الذي يتحدى النسيان والغياب.

وخلال هذي السنين تغيرت أمور كثيرة: كتبت لي ميرا كثيراً.. في البداية. كتبت أول رسالة بعد أن عادت من المحطة مباشرة. كانت الرسالة صاخبة. حادة. توقفت طويلاً عند ليليان. قالت: «أريد أن أعرف ببساطة من تكون هذه المرأة؟» وقالت: «لن أغفر ولن استريح حتى أعرف» أما ما ذكرته لها فقد أثار حنقها أكثر.. قالت: «لا أريد أن أقول لك انك كذبت علي.. لكن في الامر شيئاً لا أفهمه»

ولكن والايام تمر لم تعد ميرا الى تلك القصة إلاّ بشكل عارض.. وبعد ذلك بدأت رسائلها تتباعد. ثم انقطعت فترة من الزمن.. ولما عادت بعدها قالت: «تزوجت.. نعم تزوجت.. كما طلبت مني»

وفي الرسائل الأولى. بعد الزواج. ألحت كثيراً على ذكريات علاقتنا. ثم بعد فترة بدت لي ضجرة من الزواج. وقالت لي ذات يوم «نادمة.. نادمة كثيراً على هذا الارتباط السخيف وغير المفهوم»

ولما ذهبت الى هناك. وكان ذلك في الصيف الثالث. وجدتها اماً لطفلة صغيرة. ولم تمض خمسة شهور حتى أصبحت اماً لطفلين. وعرفت ان ما يكتبه الانسان في الرسائل لا يعنيه دائماً وبدقة. فقد تحولت ميرا مع الايام الى امرأة مستقرة. أو «في طريقها الى الاستقرار» وبدأت تنسى كل شيء عدا الاطفال والبيت والعمل.. وأخيراً الزوج.. أما الشعر فلم يعد شيئاً مهماً في حياتها. صحيح انها لا تزال تقرأ الاشعار. ولكن «قراءة عجولة مهومة».

وباولا .. لم يرها أحد من الاصدقاء. سألت عنها عدّة مرات . وسألت عنها لما سافرت لكن أحداً لم يذكر شيئاً يمكن أن يقودني اليها .. أو الى شيء من أخبارها !.

ورادميلا وايفان تزوجا . لهما الآن طفل يبلغ السابعة وأخت في الثالثة ، وقد كتبا الي مراراً في البداية . وذكرا لي انهما يخططان لمشروع سفرة ، وقد يأتيان لزيارتي ، ولكن عندما زرتهما آخر مرة ، قبل سنة ، قالا انهما سافرا الى السويد واسبانيا ، ولم يستطيعا أن يسافرا خلال السنين الاخيرة «بسبب الأطفال وأقساط البيت الذي اشتريناه».

سألتني رادميلا ونحن نشرب النبيذ في النادي المطل على النهر :

– الآن .. وقد انتهى كل شيء ، وابتعدت الوجوه والذكريات ، أريد أن أعرف منك قصة تلك المرأة التي جاءت الى المحطة !.

ورغم اني توقعت هذا السؤال من رادميلا ، فقد ارتبكت لما حاولت استرجاع صورتها .. ثم لما قلت بعض الكلمات الغامضة ، ورضيت رادميلا بما قلته ، ولكنها لم تصدق .. لاحظت ذلك من ابتسامتها ، ثم لما رفعت الكأس وقالت :

– من أجل أعز الذكريات .. وأكثرها سرية .

وعدنا الى الحديث عن الاطفال والطقس ومباريات كرة القدم .. ثم النساء .. لكن عن النساء لم نستطع أن نقول الكلمات التي تتلاعب في صدورنا مثل الرياح المجنونة ! ماذا بقي لي؟.

الأم .. أم ميرا توفيت قبل شهر من زيارتي الاخيرة . قالت ميرا :

– ذكرتك كثيراً.. وألحت أن تزور قبرها.

وقد فعلت.. أما في المرتين السابقتين فقد كانت الام فرحة لدرجة اني فوجئت بكل هذا الفرح، وقد بكت على صدري كالاطفال، وطلبت الي بجزم أن أنقل امتعتي من الفندق «القذر» لان الفنادق مكان البغايا واللصوص.. كما أن الخدمة ليست كل شيء يطلبه السائح.. ولا تسأل عن الأكل.. في أكل الفنادق البعوض والحشرات السامة.. كما أن كل شيء مغشوش».

حملت باقة من الزهور ومشينا بصمت.. ميرا في المقدمة.. وأنا وابنتها نمشي وراءها. حتى اذا دنت من القبر أشارت برأسها دون ان نلتفت. وضعت باقة الزهور دون كلمة.. ووقفت. تذكرت.. تذكرت كل شيء.. ما أتعس الانسان عندما يتحول الى مجموعة من العظام الهشة المتآكلة.. ورفضت أن أصدق أن الأم انتهت وأصبحت مجرد عظام!.

بقيت ليليان

في الرسالة الثالثة التي بعثتها لصديق. وكان معنا في المحطة يراقب بصمت. سألته عنها. ولم يجبني أول الأمر. لكن بعد أن سألته للمرة الثانية أو الثالثة. لا أتذكر، كتب ملاحظة صغيرة، كتب: «لا تسألني عنها، لم أرها. وحتى لو رأيتها قد لا أعرفها.. وليليان التي تسأل عنها ستكون بيننا مشكلة.. حساباً عسيراً.. لاني الوحيد الذي شعرت بالخديعة.. لماذا لم تذكرها لي؟ لماذا لم تحدثني عنها؟ والآن.. ماذا تريدني أن أفعل».

ظلت ليليان

في السفرات الثلاث حاولت أن أسرق نفسي من الأصدقاء بصمت وأقضي وقتاً في المحطة. لعلي أراها مرة أخرى.. لعلها تسافر.. ورغم الانتظار الطويل. والانتظار الكثير فلم تأت!.

وفي السفرات الثلاث تطلعت بشهوة جامحة الى عربات الترام لعلها تكون هناك ، لكن لم تكن .. وفي المقاهي والحدائق والتماثيل .. وفي كل مكان بحثت ، لكن لم أجدها !

والسنوات تتتابع ، سنة وراء أخرى ، وكل شيء يتغير .. الاماكن والبشر والاشجار .. وحتى محطات القطارات .. وشيء واحد شامخ لا يقهر ولا يتغير .. ليليان .

عينا ليليان ، عينا ليليان المتألقتان الحزينتان .. عيناها .. بداية العالم ونهايته بالنسبة لي .. وهي الشوق والنشوة واللهفة .. هل أضعت هاتين العينين؟ هل غابتا عني إلى الأبد؟ لا أحد يمكن أن يقنعني بأنها انتهت .. أو قد تنتهي .. قد تمرّ سنة، وعشر، لكن سأجد هاتين العينين مرة أخرى، .. سأجدهما وأغرق فيهما مرة واحدة والى الأبد !

والآن .. وقد انتهيت أشعر أن الكلمات والحروف بائسة لدرجة أنكر أن تكون ليليان في مثل هذه الكلمات .. ليليان أكثر رقة . أكثر فرحاً وحزناً من كل ما ذكرته لكم .. لكن ماذا أفعل ازاء هذه اللغة البائسة الذليلة؟

لا أملك شيئاً .. ما زالت ليليان شامخة . راكضة في ذاكرتي ، تتسلق دمي في كل لحظة ، تبكيني ، تفرحني ، لا .. يا أيها الناس ، انها تنتظرني .. انها تنتظرني في المحطة القادمة .. نعم المحطة القادمة .. لا أعرف محطة الترام .. الباص ، ولكنها تنتظر .. في مكان ما تنتظر .. سألتقي بها .. لا تسخروا .. بالتأكيد سألتقي بها !

– انتهت –

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :



MARCH 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth_Griffin





